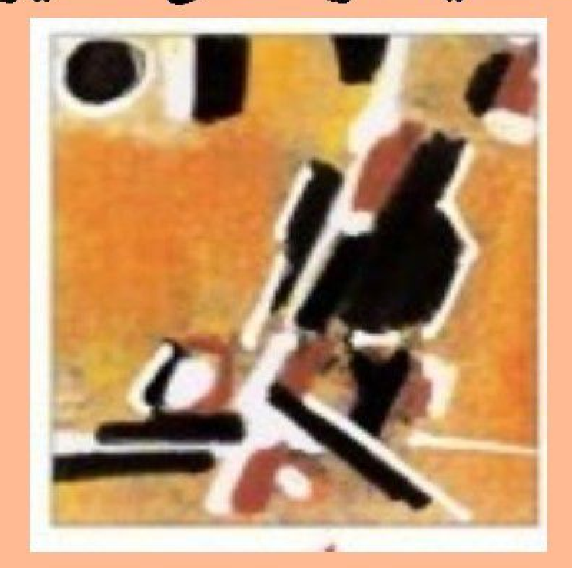
محمد المنصور الشقحاء

المحطة الأخيرة

حكايات وقصص قصيرة



دار الفارابي

المحطة الأخيرة

محمد المنصور الشقحاء

المحطة الأخيرة

حكايات وقصص قصيرة

دار الفارابي

الكتاب: المحطة الأخيرة
المؤلف: محمد المنصور الشقحاء
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2008
ISBN: 978-9953-71-276-5

السجن

بعد لقاء أدبي في المركز الثقافي ومن خلال اهتمامي الشخصي وصلتي بمدير المركز شاركت في الحوار الذي جاء عقب اللقاء في مكان يلتقي فيه ثُلّة من المثقفين في مقهى الربيع، وفي الثالثة صباحاً أوصلت أحد ضيوف اللقاء إلى الفندق.

أثناء عودتي كان رجال الشرطة قد أقاموا متاريسهم عند دوار زهرة البنفسج، تفحصني رجل الشرطة وآخر بملابس مدنية، وعندما هممت بالتجاوز سمعت نداء يطالبني بالوقوف.

فتح الرجل ذو الملابس المدنية الباب الخلفي وأخرج حقيبة يد من على المقعد الخلفي.

طلب فتحها. اعتذرت لأنها لا تخصني وإنما هي لرجل أوصلته إلى الفندق غير أنه أصر على فتحها وقام بكسر القفل.

تم حجزي، وفي الصباح تمت إحالتي إلى السجن

وبعد أشهر صدر حكم القاضي الشرعي بسجني عشر سنوات.

في السنة الأولى فصلت من وظيفتي كمعلم للغة الإنجليزية، وفى العام الثاني توفيت والدتي، وفيه طلبت زوجتي الطلاق بعد أن أنجبت ابننا الثاني.

وفي العام الثالث حظر أبي على إخواني ذكر اسمي في الدار، وتزوج أخي الأكبر زوجتي وبعد ذلك اختفت أخبار أسرتي.

لما تغير مدير السجن طلب المدير الجديد مني العمل في قسم الإرشاد ضمن المدرسة التي فتحها لتدريس المسجونين، وحفظت أجزاء من القرآن الكريم.

في نهاية العام الثامن خرجت. لا أعرف أين أذهب مع شهادة إبراء ذمة وحسن سلوك من إدارة السجن ومبلغ من المال لقاء عملي وجائزة حفظ أجزاء من القرآن الكريم.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر فضلت المشي فاخترقت شوارع الطائف، مررت بجوار المدرسة التي كنت أعمل فيها، ودخلت السوق. أكثر المحلات مغلقة ورائحة الطعام في المطاعم تشعرني بالجوع، ارتفع أذان العصر فدخلت لأداء الصلاة.

تناولت بعض الطعام وتجرعت كوباً من الشاي.

اتجهت إلى موقف السيارات، كنت أغادر الطائف في طريقي إلى جدة متذكراً البحر وأيام دراستي الجامعية.

بعد أسبوع زرت مدرسة تعليم قيادة السيارات، قدمت للمسؤول عن المدرسة رخصتي الخاصة والمنتهية وشرحت أمري وحاجتي لرخصة قيادة عامة. تعاطف معي، فكان أن اجتزت الاختبار وحصلت على الرخصة.

قمت بزيارة فرع البنك الذي يوجد لي حساب في أحد فروعه، ودخلت على المدير، زودته برقم حسابي القديم فكان به ثلاثون ألف ريال وبعض الهللات وطلبت منه إضافة جزء مما حصلت عليه ونقل حسابي إلى الفرع حتى يكون قريباً مني.

استأجرت منزلاً شعبياً في أحد الأحياء الفقيرة التي اختلطت جنسيات سكانها ثم اشتريت سيارة أجرة.

حصلت على أول أجر من (مشوار) إلى المطار، اعتدت ذلك، كنت أشغل وقتي بقراءة الصحف وبعض الكتب التي أجدها في طريقي.

تعرفت على إمام مسجد الحي الضرير وطلب مني مساعدة ابنه في درس الإنجليزي.

صاحب المنزل الذي أقيم فيه وهو رجل شرطة طلب

مني إيصال بناته إلى المدرسة بأجر ساهم في إيجار المنزل.

إمام المسجد الضرير يقوم بتدريس مادة القراءات في كلية المعلمين وله زوجة أخرى معلمة.

من كشك الصحف والكتب في المطار حصلت على كتاب تذكرت صاحبه عندما صافحتني صورته، كان صاحب الشنطة وسنوات السجن.

طلب الإمام الضرير إيصاله إلى منزل زوجته الثانية لأن السائق ذهب بزوجته الأولى إلى السوق وتأخر.

في الطريق ذكر أن زوجته الثانية كانت طالبة عندما كان يدرّس القرآن الكريم في ثانوية البنات.

تصفحت الكتاب وأخذت أتذكر أيام اهتمامي بالثقافة والعمل وزوجتي وأسرتي وتخيلت ابني أسامة والآخر الذي لا أعرف اسمه الآن.

زارتني حوادث وصور في منامي، استعذت بالله من الشيطان وأنا في طريقي لتأدية صلاة الفجر، صلّى بنا المؤذن. عرفت أن الإمام متوعك في منزله.

في العاشرة صباحاً كنت أقرع الباب، وجاء صوته مرحباً.

أخذت الصحيفة التي اعتدت قراءتها من إحدى

البقالات وأنا في طريقي إلى المنزل جاءت صورة الكاتب الذي لم أنسه تتوّج مقالاً طويلاً عن المجتمع.

في ساعة متأخرة من الليل جاء صوت زوجة إمام المسجد ترجوني أن أحضر لنقل زوجها إلى المشفى. انتظرت فحصه في قسم الإسعاف وتزويده بالعلاج.

كانت سافرة الوجه تجلس في مقعد السيارة الخلفي، أنفاسها تلفحني.

دعاني الشرطي لحفل عشاء أقامه لمناسبة ترقيته، وجدت بين الحضور الكاتب. لم يعرفني، عرفت أن الكاتب متزوج أخت الشرطي، وأنه مسؤول كبير في إدارة هامة. أشعرته بأني أقرأ كتابه الجديد.

عاد الإمام إلى المسجد وحركته، في تجوالي المعتاد وكتاب جديد على المقعد بجواري داخل السيارة، حملت امرأتين وطفلاً في الثامنة من أحد الشوارع وتحركت، وقع الكتاب بين قدمَي الطفل فانحنى وحمله، ثم هم بوضعه على مقدمة السيارة وهو يلتفت نحو المرأتين لسماع إرشادهما لي حتى أعرف الطريق. أخذت إحداهما الكتاب من بين يدي الطفل وأخذت تقلب الصفحات، وصلت إلى العنوان وترجلتا، نقدني الطفل أجرتي، افتقدت الكتاب وأخذت أضحك.

اتجهت إلى مقهى خارج المدينة مع بعض الصحف طالعت نتائج اختبارات نقل الطلاب في بعض المدارس. شيء شدني إلى قراءة أسماء إحدى مدارس الطائف، كان ابني أسامة، انحدرت دمعة وتلافيت رغبة في البكاء.

اشتريت أرضاً وقدمت أوراقها للبنك العقاري وتمكنت بعد أشهر من التعاقد مع مؤسسة بناء بعد حصولي على قرض من البنك الذي فيه حسابي برهن الأرض وقيمة القرض العقاري.

أنجزت العمارة بهدوء من دورين كل دور سكن خاص.

أقام أحد الجيران حفل عشاء حضره الشرطي والكاتب، بعد العشاء اتجهت إلى مقهى خارج المدينة.

التحقت بشركة معدات كموظف، لم أترك سيارة الأجرة، باح لي الإمام الضرير بأنه طلّق زوجته المدرّسة لأنها لا تنجب، قلت ضاحكاً إني أبحث عن زوجة لا تنجب.

بعد أيام أبلغني بموافقة أسرة زوجته المطلقة على خطبتي.

طلبت مقابلتها. ذات مسحة من الجمال والحزن،

أخبرتها عبر الهاتف بتاريخ ميلادي، وجدتها ترحب بي، وفي حفل مبسط تزوجت.

بعد أشهر طلبت مني البحث عن أسرتي وأمام ترددي أغرتني برحلة نهاية الأسبوع إلى الطائف.

أصرت على أن أدخل الشارع الذي فيه منزلنا القديم وجدنا في الشارع خيمة منصوبة وكراسي مصفوفة، فتحت زجاج النافذة. سألت أحد الأطفال عن الخيمة. فإذا بها مجلس عزاء لوفاة والدي، طلبت مني إيقاف العربة والنزول. أمسكت بيدي، سألت الأطفال عن مكان عزاء النساء، دخلنا المنزل القديم، أخذت تصفق، خرجت امرأة ما إن لمحتها حتى عرفت أنها أختي. رفعت زوجتي الغطاء عن وجهها، تقدمت منها، ضمتها إلى صدرها معزية.

انكبت أختي على كفي تقبلها وهي تبكي وخرج أخي الأكبر من غرفة الجلوس على الضجة، أسرع إلي أخذ يبكي وهو يحتضنني، أخذت أختي زوجتي إلى غرفة النساء وجاء أخي الآخر.

وأنا أدخل غرفة الجلوس حيث يجلس مجموعة من الأطفال والشباب تلفت أتفحص الوجوه، اقتربت من فتى في السادسة عشرة وأخذت أحدق فيه، همست: أنت

أسامة؟، هزّ رأسه، قال أخي الأكبر: هذا أبوك. لثم أسامة كفي، وجاء من طرف الغرفة فتى يصغره هو عبد الرحمن ابني الذي لا أعرفه.

أخذنا نتحدث عن الأسرة وعن أخباري. كنا نتوقف عند تاريخ دخولي السجن مستعيدين ذكريات الطفولة، عرفت أن أسامة وعبد الرحمن من خلال عدم ذكر اسمي بين الأسرة ظنا أني ميت.

بعد يومين من الذكريات، أخذت زوجتي إلى أفخر فندق في المدينة. بعيداً عن الناس أخذت تحدثني عن أسرتي والمصادفة التي حدثت.

عدت إلى عملي وعادت زوجتي إلى عملها.

الشرطي دعاني وزوجتي لعشاء خاص، تحدثت عن قصتي مع السجن وحياة أسرتي.

الكاتب حدّق بي وهو يرتعش، خرج دون أن ينبس بكلمة، الإمام الضرير أخذ يعلق على تجربتي، بعض الجيران الذين كنت ألتقيهم في المسجد حمدوا صبري.

بعد انتهاء العشاء أخذت زوجتي إلى البحر، جلسنا على أحد الكراسي نتابع زبد الموج عبر ما يصل من ضوء الأعمدة الممتدة على طول (الكورنيش). من خلال الصمت

تخللت أناملها أصابعي، شعرت بالحياة تسري في داخلي وينبثق عبر البحر نور يرتفع إلى السماء.

من خلاله أخذت أتأمل وجه زوجتي. شيء فيها يشرق، وقطعت تأملي بالتفاتها نحوي وهي تضحك.

القنبرة

قال التنين: «لكثرة مآرب الإنس وفنون تصاريفهم في أمورهم واختلاف أحوالهم، احتاجوا إلى كثرة الملوك».
أخذت تشغل وقتها بالجلوس أمام التلفاز تتابع البرامج العلمية والثقافية تعوّض من أميتها.

قال التنين: «ولكن أرى السلحفاة تصلح لهذا الأمر لأنها تصبر على الماء وترعى في البر وتعيش في البحر وتتنفس الهواء».

كان طلاقها من زوجها الأول مصدر خلاف مع والدها الذي رفض كل الوساطة فتركت ولديها عند أسرة زوجها.

قال التنين: «أما تسمعون شكاية هذه البهائم والأنعام وما يصفن من جور بني آدم عليها وظلمهم وتعديهم عليها وقلة رحمتهم».

وجاء زواجها الثاني لتكون زوجة ثانية. قالت والدتها: إنه ابن عمك جاء لسترك. كان الأول أيضاً ابن عم.

قال الدب: «إن في السباع أخياراً وأشراراً وإن الأشرار لا تأكل إلا الناس الأشرار».

من خلال الزوج الثاني توسعت ارتباطاتها الاجتماعية والأسرية وزادت مسؤوليتها بعد مرض الزوجة الأولى، وشارك في المسؤولية (راجي) شقيق المريضة الأصغر فني أشعة في المستشفى العام. جاء (راجي) مقتحماً أسواراً وهمية ـ تراكمت مع الأيام ـ حتى لم يبق لها مكان.

جاءت المواجهة الأولى في غرفته في المستشفى. كانت مع فاطمة وسائقها دفعها إلى ذلك زوجها للوقوف مع زوجة زميل وصديق. كانت غرفة (راجي) تعج بالمراجعين نساء ورجالاً، أخذهم إلى غرفة جانبية وما إن جلست فاطمة حتى نزعت غطاء وجهها فسايرتها. الحديث كان متقطعاً، جاءت الممرضة وأخذت فاطمة إلى غرفة الأشعة.

كان (راجي) لطيفاً في الحديث حزيناً على حالة شقيقته المريضة.

قال البوم: (بنو آدم أكثر الحيوانات عدداً وأجناساً وأنواعاً وأشخاصاً) .

ذات مساء جاء (راجي) حاملاً نتائج الأشعة، طلب منها إبلاغ صديقتها بالموعد الجديد، كانت أنفاسه تلهب

وجهها وصوته يثير الرعشة في أطرافها، لحقت به وهو يغادر غرفة شقيقته. نزعت الغطاء عن وجهها، تأملها وهي تشرح معاناتها أمام الباب الخارجي للشقة.

قال القرد: «إن كان الأمر هناك يمشي بالخيلاء والمحاكاة واللعب واللهو والرقص عند ضرب الدف والطبول فأنا لها».

أسرعت إلى الهاتف، تبلغ فاطمة بنتائج الأشعة والموعد الجديد، لمست منها إعجابها براجي، أخذت تضحك.

دعاهم (راجي) للعشاء في مطعم للمأكولات الأجنبية، لم يطل بثلاثتهم المقام في العودة، لم تتوقف فاطمة عن إبداء إعجابها.

قال التنين: «إن ملوك بني آدم يحبون الجوارح من البزاة والصقور والشواهين وغيرها ويكرمونها ويعظمونها ويحملونها على أيديهم ويمسحونها بأكمامهم».

قالت فاطمة والاثنتان في حفل زفاف صديقة مشتركة: هل تم نقل (راجي) من مكتبه، تبسمت، عرفت أن (راجي) زرع في طريق فاطمة أحد موظفيه.

قالت فاطمة: جاءت ممرضة لإجراء فحص أشعة جديد فلم تتقن عملها. وبحثت عن (راجي) فلم أجده،

هناك آخر سيطر على الأمــر، وأخذ الأشعة، لا أدري كيف وافقت.

تبسمت كان الآخر ابنها من زوجها الأول، جاء يعمل في وقت الصيف.

قالت فاطمة: عرف رقم هاتفي، اتصل منذ دقائق يخبرني بالموعد الجديد لمراجعة الطبيب. أقبلت أخرى وجلست بين الاثنتين، اختلط الحفل.

قال الدب: «الخنزير ليس من الأنعام بل هو من السباع ألا ترى أن له أنياباً ويأكل الجيف».

عندما عادت آخر الليل، كانت حقيبة يد فاطمة في صالة الجلوس وزوجها متمدداً في فراشه. ابنها في غرفة الضيوف نائم بملابسه الداخلية. أخذت تقلب محتويات الحقيبة، لم يكن بها سوى قلم أحمر الشفاه، وعلبة بودرة صغيرة للوجه، ومناديل جيب ورقية، وألفي ريال من فئات مختلفة. أخذت ألفاً، أغلقت الحقيبة وتركتها في مكان بارز، غيرت ملابسها وتمددت في الفراش.

قال التنين: «وانصرف الجن من هناك خجلين منكسين رؤوسهم وغوغاء الإنس يطقطقون في أثرهم».

قالت فاطمة عبر الهاتف: نسيت حقيبتي في حفل البارحة، لا أدري ماذا حدث.

قالت لها: مؤكد أنك فقدت شعورك حتى إني افتقدتك أثناء العشاء.

قالت فاطمة: من أحاديث مريم ومنال لولا حضور زوج منال لكان أمر، تصدقين أن مريم دعتني للجلوس وحدنا، فجأة نزلت علينا صديقة لمريم.

قالت: لابد أنك نسيت حقيبتك في المكان الذي أخذتك إليه مريم.

قالت فاطمة: هذه مصيبة وأغلقت السماعة.

قالت الخرشة: «ثم أن البواشق والشواهين تصطاد العصافير والقبرات».

قال ابن عرس: «إن كان الأمر يمشي باللصوصية والتجسس والاختفاء والسرقة فأنا لها».

قالت أم عريط: «لقد كان عباس على قدر الطموح إذ استطاع إشراك أحد أصدقائه تلك الليلة».

قالت فاطمة: لقد وجدت الحقيبة لكن الفلوس ناقصة، كانت الاثنتان مع أطفالهن يفترشون الأرض في منتزه الردف، تناثر الأولاد والبنات بين المراجيح وبائعي المثلجات.

قامت فاطمة، سحبتها من يدها في جولة على أطراف

المنتزه جاءت فاطمة أطول وأرشق، رغم كبر سنها، لها في العمل كمعلمة وإدارية أكثر من عشرين عاماً .

شعرت بشيء من الثقل والخور فتثاقلت خطاها متأخرة، التفتت فاطمة وهمست: يا عجوز نشطي خطاك، شوفي الرجال الذين في السيارة البيضاء، تلفتت حولها، هناك أكثر من سيارة بيضاء.

قالت فاطمة: قدامك على طول (فزي) حتى تكون صورتنا حلوة، ضحكت الاثنتان[*].

(*) ابن عرس والتنين مشاهد من رسالة (تداعي الحيوان على الإنسان) لإخوان الصفا.

اللقاء

وقف في الطابور وأخذ يتلفت حوله، يعرف كل الوجوه التي انحشرت عنوة داخل صالة الاستقبال الرحبة يتذكر كيف جاء، عرّج مصادفة على مكتب صديقه إسماعيل، فطلب منه مشاركته في مشوار هام، أخذه الارتباك الذي تقمص استعداد اسماعيل.

- سوف نلاقي شخصية هامة.
- أين؟.
- ونشارك في حب الخشوم التي نطالعها كل يوم.
- نعم.
- سوف نتأخر.

لم يفد التحذير، وصل الاثنان إلى القصر الكبير، الأضواء تتوهج، رجال الشرطة في كل مكان، وآخرون يحدّقون بكل قادم بقسوة.

الثبات وارد، أخرج إسماعيل من لفافة ملقاة على المقعد الخلفي للسيارة مشلحاً آخر، طلب منه أن يرتديه؛ الحفل رسمي، ارتدى المشلح وأخذ يتعثر في خطواته.

الصالة مليئة بالحضور، كلهم يعرفهم من تكرار مشاهدته لهم وهم يقبلون الطرف الأيمن للمشلح، أو ينحنون للثم الكف المبسوطة، في المناسبات المعلنة عبر شاشة التلفاز.

الساعة السادسة، الوقت يمر ببطء، الساعة السابعة.. صوت مؤذن يعلن حلول وقت صلاة المغرب، لا أحد يتلفت. لا أحد ينهض.

قامت مجموعة صغيرة من الصف الأول، افترش كل واحد (مشلحه)، تقدمهم رجل ملتح كبّر لصلاة المغرب، انضم آخرون من باقي الصفوف، عاد المصلون إلى مقاعدهم، وإن كان نصفها قد احتل بوافدين جدد.

الساعة الثامنة، بدت طلائع حركة، تناول معظم الجالسين القهوة، توزع في القاعة بعض رجال الشرطة، وآخرون من ذوي المهام الخاصة.

دخل صاحب القصر وهو يحادث آخر يسير خلفه بخطوات شبه منحن، يحمل بين يديه ملفاً برزت من أطرافه أوراق ملونة، نهض الجميع، أشار صاحب القصر للآخر بالانصراف، انشغل الآخر بترتيب أوراق الملف وقد واجه الحائط.

اصطف الحضور في خط للسلام، جاء دوره، مد يده

لمس اليد الممدودة، شد عليها كما هي عادته في المصافحة، افتر ثغره عن ابتسامة صغيرة وهو يتأمل الوجه عن قرب، تحرك بعد أن لمس تذمر من يقف خلفه.

لم يلاحظ سطوة صاحب القصر، شعر بأن الأشياء مألوفة لا يوجد ذلك الانبهار، الذي يشاهده كل مساء على شاشة التلفاز.

حاول العودة إلى مكانه، فقد التركيز، لم يجد المقعد، كما فقد الطريق إلى إسماعيل الذي مازال في الصف ينتظر دوره.

العطـــــر

في الرابعة من العمر، كُلّف والدي العمل في السفارة في دمشق، وبعد عشر سنوات عدت بعد أن عثر عليه ميتاً في سيارته بمواقف سيارات تلك السفارة.

بمعونة من جدي اشترت أمي منزلاً في حي متوسط بمدينة الرياض، وفي العام الثالث أقنع جدي والدتي بالزواج، فكان أن تركتني وأختي في كنفه، ولما تخرجت من الجامعة تزوجت ابنة عمي، التي طلبت الطلاق في نهاية العام الأول.

نمت في داخلي حاجتي إلى الحرية، أخذت إجازة من العمل، سافرت في السيارة في رحلة داخلية غادرت فيها الرياض، ولما وصلت إلى مكة المكرمة أديت مناسك العمرة وبقيت ثلاثة أيام، ومن جدة شحنت السيارة إلى الرياض، وركبت الطائرة إلى أوروبا ثم أمريكا.

طالت رحلتي بعد أن تمكنت من الحصول على قبول في الجامعة لنيل دبلوم في الحاسب ودرجة الماجستير،

سبع سنوات استمرت الرحلة كان خلالها عمي قد توفي في حادث سير وبات جدي مقعداً في دار رعاية المسنين، أمي طلقت من زوجها واحتفظت بابنها منه.

انشغلت بتأسيس وكالة لتوزيع أجهزة الحاسب. ذات مساء تلقيت اتصالاً هاتفياً من موظف في جهة حكومية يطلب مقابلتي، كان سؤال الموظف عن قصدي الذي أخفيه في نص إبداعي نشرته مجلة أدبية في القاهرة، وعقب هذه الأسئلة تم سجني أشهراً، أغلقت فيها الوكالة، واشترى أحد التجار شركة الحاسب، وخسرت الضمانات المالية، بدعوى الإهمال.

أمي تزوجت برجل يصغرها كثيراً، فهجرت الدار وأقمت في استراحة أعددتها كمستودع لمشروعي، على أرض جاءت كمنحة من الدولة توسط فيها جدي أثناء غيابي.

عاودت نشاطي التجاري بمشروع صغير، بعد غروب يوم كان علي مقابلة وكيل شركة الحاسب، اصطدمت بمؤخرة سيارة توقفت فجأه أمامي حتى يترجل من في داخلها، نزل السائق لم يكن هناك تلف أو أثر.

طلب الشرطي الذي انبثق فجأة رخصة القيادة وبطاقة السيارة وطلب مني مراجعة إدارة المرور، لاحظت أنه

تجاوزني وأخذ يتابع من يترجل من العربة الأخرى وهو يبادل السائق الحديث.

أخذت رقم العربة ورقم لوحة سيارة شرطي السير، أوقفت عربتي في مكان مناسب حتى أنجز عملي، راجعت إدارة المرور لم أعثر على أوراقي، طلبت من القائد تزويدي بورقة سير موقّتة حتى لا يعترض طريقي شرطي آخر، تكررت زياراتي لمركز الشرطة، أخذت أبحث عن سيارة الشرطي، وطلبت من صديق معرفة صاحب السيارة الأخرى، عثرت على سيارة الشرطة مع آخر، كانت رخصة القيادة وبطاقة سيارتي في درج السيارة.

بعد أيام أخبرني صديقي أن السيارة التي أبحث عنها تعود إلى مسؤول مهم تردد في البوح باسمه، نسيت الأمر لانشغالي بأعمالي طلبت إحدى المدارس الأهلية تجهيزها بالحاسب، أثناء العمل تعرفت على مديرة قسم البنات ومساعدتها، كانت المساعدة عانساً أغرتني المديرة بها زوجة.

أخذت زوجتي تنقل عمل المدرسة إلى الدار، بين كشوف الأسماء عثرت على اسم المسؤول المهم من خلال وجود ثلاث من بناته في مراحل مختلفة، عرفت أن

هناك ابنة رابعة تركت الدراسة وعادت من الخارج تحمل الدكتوراه. تعثر زواجها أكثر من مرة.

في السنة الثانية جاء أسامة ومعه كان الطلاق، عدت للاستراحة أبحث عن السكينة من خلال تكثيف البوح والكتابة، كتاباتي في الصحف تطورت إلى مناقشة أمور المجتمع وسلبيات الأداء الحكومي، لم يعد للمكتب نصيب في الأعمال الحكومية وتوقف البيع على الأفراد.

أمي طلقت زوجها الشاب، تعرض محلي التجاري للسرقة، أقمت مع والدتي بعض الوقت. ذات مساء وأنا أقلب العدد الجديد من المجلة التي تنشر ما أكتب، جاء الموضوع الرئيس دراسة لكتاب أصدرته ابنة المسؤول المهم، تطرق الكاتب لأهمية الكتاب وأثره في الساحة الفكرية، وحاجة المكتبة لمثل هذا العمل.

بحثت عن الكتاب في المكتبات فلم أعثر عليه، طلبته من محرر المجلة التي تنشر كتاباتي فوعدني خيراً، جاء الكتاب مع مراسل خاص، كان المراسل السائق الذي اصطدمت بسيارته. لم يذكرني، دعوته لشرب الشاي، في تلك الدقائق دفعته للحديث عن الدكتورة واهتماماتها الثقافية وسفرها المستمر، أخذت أقلب الكتاب فوجدته مجموعة مقالات انتهى وقتها وأخرى لا تهم الشريحة

الكبيرة من القراء. قدمت دراسة مناقضة، رفضت المجلة نشرها.

كنت أتأخر في مكتبي لإنجاز بعض الأوراق، ولأنه لم يكن شيء يلزمني أعود إلى مسكني قبل غروب الشمس، مع ارتفاع نداء الإقامة لصلاة العشاء رن جرس الباب، كان السائق ومعه رجلان، استنشق أنفي عطراً نسائياً، دخلت تتهدل عباءتها على جانبيها، تلبس سروالاً (جنز) وقميصاً ملوناً ذا مثلثات ومربعات، جلست على أقرب مقعد، سألتني عما كتبت عن كتابها، تأخرت في الرد، رمت بأوراق أخذتها من السائق أمامي على الأرض، انحنيت أجمعها، لفت نظري حذاؤها الرياضي، بعد جمع الأوراق تجاوزت المفاجأة، دعوتها لدخول مكتبتي، أخذت تطالع رفوف الكتب، أخرجت كتاباً يتناول أسرتها بالذم، قلبت صفحاته.

لما جلست خلف المكتب خرجت لإحضار مشروب من المطبخ، غادرت الغرفة والكتاب معها وعلى وجهها ابتسامة صغيرة، طلبت إعارتها الكتاب، في المساء صوتها انسل مناقشاً ما جاء في مقالي وفي بعض الكتب التي وجدتها في مكتبتي الصغيرة.

في التاسعة من صباح يوم خميس وأنا أجلس في

مكتبي بمتجري، شممت عطرها وقد وقف أمامي زائر بثوب رجالي ناصع البياض وغترة حمراء وعقال، ركزت نظري، كانت هي جلست على المقعد المقابل.

خرجنا من المكتب، لفتت نظري سيارتها المتوقفة في الموقف، غادرنا المدينة إلى الاستراحة، ترجلت من السيارة تجولت على طرف المسبح، جلست، نثرت بين يديها المتوفر من الشراب، تخلت عن العقال والغترة، انساب شعرها القصير، خلعت الحذاء، أنزلت قدميها في الماء تحدثت عن كتاب جديد لها في المطابع، في السادسة ونحن في طريق العودة، طلبت مني مراجعة المطبعة التي تطبع الكتاب حتى آخذ نسخة للمراجعة قبل خروجه للقراء.

أخبرتني أمي أن زوجتي تزوجت وأنها طلبت منها رعاية أسامة، بعد خروج الكتاب كثر النقاش حوله، مقالي عنه سبب عودتي للسجن أشهراً جديدة، لما خرجت اعتزلت في خلوة داخل الاستراحة، جمعت فيها بعض مقالاتي، أرسلتها مع مندوب مبيعات إلى بيروت لتخرج في كتاب.

زوجتي طلقت، وجاء صوت المديرة يدعوني لأمر هام، حدثتني عن حاجة زوجتي لي، ناقشتها في عيوب زوجتي الخلقية، بعد ساعة نهضت معلنة انتهاء المقابلة.

كما هي عادتي وأنا أدخل المبنى التجاري الذي فيه محلي، آخذ مجموعة من الصحف أتركها على المكتب حتى أتفقد العمل، جلست إلى المكتب، أخذت أقلب الجريدة الأولى، صدم نظري نعي متوفاة يحتل صفحة كاملة، كانت الدكتورة تكرر النعي في الجرائد الأخرى محتلاً أغلب الصفحات، غادرت المكتب، أخذتني عربتي إلى منزل والدها المسؤول المهم، دقق رجال الأمن في هويتي، وطرحت أسئلة عن سبب حضوري.

سمع جدالنا أحد موظفي القصر، كان السائق سهّل دخولي إلى القصر، أخبرني أن الوالد مسافر، دخلت قاعة الاستقبال، عرفني على أكبر إخوانها وابنها الوحيد من زواجها الأول، تقبل الجميع العزاء أثناء خروجي من القاعة، لحق بي شقيقها الأكبر، أمر أحد الخدم بإحضار مظروف من مكتبه، قدمه لي حسب رغبة المرحومة وأنا أدير محرك العربة عرفت أنه فتح.

رن هاتفي الجوال كانت أمي، تصرخ بي بأن الحق منزلي الذي يحترق، لما وصلت كانت النار قد التهمت كل شيء، ورجال المطافئ والشرطة يعدون محضراً بالحريق، اقتربت من المسؤول عرفته بنفسي، طلب توقيعي.

أبو سعيد

قضيت طفولتي في مدرسة دار الأيتام، ولما بلغت الثامنة عشرة دخلت المدرسة العسكرية فتطور عملي وتدرجت وظيفتي. في الثلاثين تزوجت شيماء ابنة فلسطيني يعمل مترجماً في دائرتي، في السنة الأولى جاء سعيد وفي السنة الرابعة سماح.

بعد تقاعد والد زوجتي وحصوله على الجنسية فتح مدرسة أهلية للبنين والبنات، غدت شيماء مديرة القسم الأنثوي، وبات هو مشرفاً عاماً ومديراً لقسم الذكور.

طبيعة عملي التنقل ومشاركة الوفود المسافرة والقادمة في اجتماعاتهم وجولاتهم، وكنت أستعين بوالد زوجتي في بعض المهام، غير أني شعرت بالحرج وهو يمارس ضغوطه علي حتى أضاعف المكافأة. ويتدخل حتى أرفض طلبات من يعرف.

مع الوقت أصبحت شيماء وهي ترى سعيداً فتى وسماح عروساً تتجاهل وجودي وتهمل رأيي في أمور المنزل وحاجة الأسرة.

وقد ورثت المدرسة بعد والدها الذي وُجد مقتولاً داخل ورشة مهجورة لإصلاح السيارات في شارع معارض السيارات حيث يكثر العمال في هذه الورش من الفلسطينيين وجاليات أخرى من شرق آسيا. اعتنت شيماء بوالدتها فأشرفت على زواج شقيقاتها الثلاث وابتعاث أخويها لدراسة الطب في إحدى دول شرق أوروبا.

التحق سعيد بكلية الاقتصاد والإدارة وسماح وهي في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية خطبت، وقبل ظهور نتائج اختبار الثانوية العامة كان زواجها من ابن زميل في العمل.

في جولة تفقدية على أحد المواقع الحدودية تعطلت بنا السيارة، كان السائق معي فقط، لم يشعر أحد بتأخرنا ولم نكن مستعدين لهذه الحالة.

البرد القارس يلدغ جسمي، والهواء الذي يحمل ذرات الرمل يصفع سيارة الجيب ومسام الغطاء تصدر أصوات متناغمة. لا أدري كيف غفوت.

صحوت على ثغاء أغنام وهرج أشخاص لا أعرفهم. السائق ميت، تلفت حولي، الأشخاص والماشية يبتعدون وقد خلت العربة من كل شيء، نقلت السائق إلى داخل السيارة وأدرت المحرك.

وصلت إلى الإدارة وهناك اتهمني أقارب السائق بقتله.

سبب موته كان لدغة أفعى عثر عليها الأطباء ميتة في سرواله.

اهتزت معنوياتي وشعرت بالإرهاق والعجز.

دخلت المستشفى فاحتار الأطباء في علتي. حدّثت الأخصائي النفسي عن طفولتي ومدرسة الأيتام وعرفت أن لي أخاً دخل معي المدرسة أيضاً ولا أدري مصيره.

تذكرت مقتل والد شيماء، سألني الأخصائي عن عماد. أنكرت معرفتي به، وفي أثناء الحديث عرفت أن عماداً شقيق شيماء رفض العودة، وأنشأ فصيلاً فلسطينياً لمقاومة اليهود في دمشق وأبحاثه ومقالاته المنشورة في الصحف والكتب تتهم وطني بالعمالة والخيانة، شعرت بحاجتي للنوم.

أحلم في صحوي ونومي أني أمص الحليب من ثدي امرأة سترت وجهها بغطاء أسود شفاف، وأن أخرى كانت تأخذني إذا شبعت، تذكرت أخي الذي كان بكاؤه يملأ الدار وغرف مدرسة الأيتام وتسابقنا إلى الدرس والنجاح وحرص العاملين في المدرسة على أن نشعر بأننا في يد أمينة.

قالت شيماء إن الرجل جُنّ. كانت تحادث أمها وقد أغلقت علي باب غرفة النوم. سماح تأتي لزيارتي كلما

سمحت الظروف لزوجها. سعيد رغم وجوده معنا في الدار نادراً ما يدخل الغرفة التي أجد في داخلها السكون والأمن، فكنت أتناول طعامي الذي تحضره شيماء عندما تكون في الدار. وإن كانت الخادمة هي التي تقوم بذلك، لم تنقطع زيارتي إلى المستشفى.

أصبح عملي بعد أن ترفعت مسؤولاً عن قطاع الإنتاج في مصانع الدائرة التي تجمعها رقعة واحدة على بعد مائة كيلومتر من الرياض، فضلت الإقامة في بيت الضيافة الذي يستقبل الزوار والقيادات العليا.

انقطعت صلتي بشيماء حتى وصلني استدعاء من المحكمة لطلب الانفصال، ادعت أني لم أعد قادراً على أداء واجبي كزوج. نسيت ذلك وأمام إصرارها على تحويلي لطبيب للكشف كان الطلاق حتى لا نخرج عن نطاق غرفة القاضي.

بعد هذه الصدمة سافرت في مهمة عمل إلى بلد عربي وراجعت الأطباء، عرفت أني فعلاً وصلت إلى هذه الحالة.

طلب مني زيارة طبيب نفساني لأن ما أعانيه ليس مرضاً جسدياً، استقر في ذهني وقد تجاوزت الخمسين

الاستقالة، غير أن الإدارة رفضت ذلك فأخذت إجازة سافرت فيها إلى جدة.

أبلغت فرع إدارتي في المدينة بمكاني وعلمت أن الرئيس سوف يزور الفرع فكنت من المستقبلين، ولما اختلى بي عرف رغبتي في الإقامة في هذه المدينة وتكوين حياة جديدة. بعد أيام قدّم لي أحد المراسلين مظروفاً مغلقاً في داخله صك تملك إحدى الوحدات السكنية التي تمنح لكبار المسؤولين، وصك آخر بقطعة أرض بمساحة أكبر هدية شخصية من أملاك الرئيس في المدينة. أقمت عليها أسواقاً تجارية وهجرت المسكن إلى شقة في عمارة بجوار السوق.

تذكرت مدرسة الأيتام التي أدخلني إليها خالي، أخذت أسأل عن مصير المدرسة وملفاتها حتى وصلت إلى بداية الخيط.

سافرت إلى الرياض حيث تكدست الأوراق، تعاطف أحد موظفي الأرشيف معي، عثرت على بعض أوراق ملفي عرفت أن خالي كان زوّج أمي تخلصاً مني ومن أخي بعد أن التحق جندياً بالأمن في مكة المكرمة، ومن الكشوف عرفت أن أخي هرب من المدرسة.

سافرت إلى قرية أمي وزوجها، لم أجد من يعرفني

وإن كان اسم أمي وعائلتها دليلي وعرفت أن أبي أحد عمال مزرعة والدها، اختفى وتزوجت ابن خالتها.

عدت إلى شقتي خائباً ووجدت معالم زيارة سعيد وسماح. لا أدري كيف استدلا على عنواني غير أن المسؤول عن أحد المحلات أخبرني أن سيدة زارت المحل وأخذت فاتورة بما شرت ولما ذكر اسمي سألت عني وكأنها تعرفني ثم تكررت زيارتها للمحل.

ترددت في الاتصال برقم الهاتف الذي دونته في دفتر على مكتبي الأول لهاتف ثابت في الطائف، والآخر لهاتف نقال جربت الأول فلم يرد أحد، واستعملت الآخر فجاء صوت توهمت أني أعرفه فعرفت نفسي بأبي سعيد.

إنها تماضر أخت شيماء عرفت أمري مصادفة. تقيم في الطائف منذ خمس سنوات وحتى الآن لم ترزق بأبناء رغم مرور عشر سنوات على زواجها.

شيماء تزوجت بآخر، أسرته من قرية والدها التي احتلها اليهود عام 1948 من فلسطينيي الشتات.

شقتي في الدور الأرضي نوافذها تطل على مساحة صغيرة من الأرض قمت بزرعها ببعض الزهور، وتعتني بنظافتها عاملة حبشية تحضر يوماً بعد يوم لتغسل ملابسي وتنظف الشقة.

جاءت تماضر، رن جرس الباب، لما فتحته العاملة الحبشية وزعت نظراتها بيننا واختفت.

أخذت تحدثني عن حياتها، وأن أخاها عماد عاد مع العائدين إلى فلسطين برفقة المنظمة كمسؤول إعلامي وأن أخاها عبد الله التحق بمدرسة شيماء الأهلية بعد تخرجه من الجامعة، أما أختها الثالثة فقد رزقت عدداً من الأولاد وهي تقيم مع زوجها في الدمام. سعيد تقدم للعمل مدرساً في مدرسة نائية في قلب الصحراء. بعد أن شربت الشاي نهضت، دعتني لزيارتها والتعرف على زوجها الذي يعمل في البنك الأمريكي.

تبدل حال العاملة الحبشية بعد زيارة تماضر، أخذت تعتني بشكلها وتهتم بتوزيع الأثاث داخل الشقة والحرص على إبراز ذوقها في العناية بالستائر واللوحات الفنية والصور المعلقة على الجدران، كما قامت بإبدال الكرسي الذي اعتدت التمدد عليه في غرفة الجلوس، وأنا أستسلم لأناملها التي تتلمس ألماً مزمناً في كتفي اليمنى يشتد حتى يصل إلى أسفل ظهري، وقررت النوم في غرفة الضيوف حتى أجد الفطور وكأس الحليب.

ذات ليلة وبينما أنامل العاملة تمارس طقوسها في ملاحقة أوجاع ظهري، رن الهاتف، كانت تماضر تتحدث

عن مشروعها الحلم فأخذت أضحك، تجاوز التدليك الأماكن المعتادة، تغلغل فسرى خدر في أعماقي فنملت أطرافي، لا أدري متى نمت وكيف تركت غرفة الجلوس، تلفت حولي غطيت جسدي العاري، باب الغرفة مشرع، صوت العاملة ينساب رخيماً بأغنية تسكن أعماقي، وجدتها في المطبخ بادلتني تحية الصباح، تناولت كأس الحليب والفطور، وصلت إلى مكتبي متأخراً.

عدت في المساء فوجدت بقية الفطور مكانها في غرفة الجلوس تجولت في الشقة، لا أحد، حملت أطباق الفطور إلي المطبخ، بدلت ملابسي.

أعددت كوب شاي، جلست أمام التلفزيون أتابع ما يعرض حتى نعست، تأخر قدوم العاملة الحبشية حتى شعرت برائحة الغبار.طلبت من أحد العاملين إحضار أخرى.

اعتدت النوم حتى الظهر في أيام الخميس حيث أسهر مع مجموعة من الأصدقاء إلى ساعة متأخرة نلعب البلوت ونتعشى في أحد شاليهات البحر ونمارس السباحة عندما يكون القمر في كبد السماء.

جرس الباب يرن، كنت أحلم، تكرر، نهضت بقميص البيجاما وسروالي القصير.

كانت تماضر. لما شاهدت ملابسي ضحكت.

خلعت عباءتها، تهدل شعرها، فتحت حقيبة يدها وأخرجت مجموعة أوراق نشرتها على الطاولة وأخذت تحدثني عن مشروع مشغل الخياطة.

دخلت الحمّام، غسلت وجهي وغطيت جسدي، لم تكن في غرفة الجلوس، سمعت صوتها وحركتها في المطبخ، عادت تحمل الشاي وقنينة ماء وكنت أقلب أوراقها.

رن هاتفها الجوال فقامت تاركة الأوراق، قالت وهي تفتح باب الشقة إنها سوف تعود بعد غروب الشمس.

ارتفع أذان العشاء وإذا بالباب يقرع، كانت تماضر. انهارت باكية على أحد مقاعد الجلوس عرفت أن سائق عربتها اصطدم بسيارة أخرى وتم حجز السائق، تركت رأسها على صدري. سرت ابتسامة خفيفة على وجهها، أخذت أمازحها.

أحد الأصدقاء أحضر عاملة إندونيسية تعمل في مشغل خياطة تديره زوجته.

زارتني ابنتي سماح وجاء سعيد لقضاء أيام من إجازة نهاية العام الدراسي قبل سفره إلى الخارج، بعد سفر سماح ناقشته في عمله، أخذ يبكي على كتفي، تذكرته طفلاً عندما أعاقبه كانت دموعه تنهار وهو يلتصق بي فأتركه يبكي حتى ينام.

أعدّت الخادمة الفطور، جلسنا حول طاولة الطعام، تحدث عن حياته وشعوره باليتم وعن المدرسة وكيف أنه كان يُعرف بين أصدقائه بسعيد الفلسطيني، عرّفته على عمال المحلات التجارية، ذكّرته بطفولته وكيف كان يبكي كثيراً.

جلسنا حتى ساعة متأخرة من الليل على البحر، عرفته على الأصدقاء في منتزه بحري، عاتبه بعضهم على انقطاعه عنهم. سافر غير أنه عاد بعد أيام. توسطت له بالنقل فكان أن جاء اسمه في قرار خاص.

تماضر وهي تقوم بشراء ما يحتاجه مشغلها همست أني تلك الليلة كنت الإنسان الكامل، تذكرت شيماء وعجزي.

خطبت لسعيد ابنة أحد الأصدقاء.جهزت سكنه بما لم يحلم به، حضرت شيماء حفل الزواج، كانت أكبر من سنها.

قالت شيماء ونحن نجلس حول طاولة في منتزه بحري ضمّت سعيداً وزوجته وتماضر، إنها تنوي شراء شقة حتى تكون بجوار ابنها.

قام سعيد، أخذ زوجته ليركب معها أحد الزوارق، لم أعلق على الأمر.

الغيـــاب

لا أدري متى كان مولدي وأين ولمن أنتمي. تواردت هذه الخواطر وأنا أقف خلف المنبر لإلقاء قصيدة شعر كتبتها للمسابقة الأدبية.

أخذت أعدّ الحضور، مضيفاً عدداً موازياً لكل رقم أصله لأعرف كم عيناً ترمقني هذه اللحظة في الصالة، متجاوزاً تلك التي تتابع المسابقة عبر شاشات التلفاز. اعتذرت عن إلقاء القصيدة وغادرت الصالة، تصفيق حاد يلاحقني، تجاوزت سيارتي، اخترقت طرقاً تعرفها طفولتي حتى وصلت إلى الدار.

لم يكن هناك أحد، تركني الجميع ورحلوا، تمددت في الفراش بملابسي، الظلام يحيط بي.

أخرجت القصيدة من جيب الثوب، ارتفع صوتي مرتلاً أبياتها، هناك من يدعوني لإعادة بعض المقاطع.

في المكتب طالبني الزملاء بمشروب وإفطار دسم على حسابي، لقد فازت قصيدتي بالمرتبة الأولى. جلست خلف

مكتبي بعثرت محتويات جيبي على سطح المكتب. بطاقات، أسماء، قصاصات تحمل أرقام هواتف وفواتير المغسلة حيث تربض ثيابي دائماً.

الشيء الذي افتقدته أوراق القصيدة.خرجت من المكتب عدواً إلى الدار، قلبت المخدات وكتبي المتناثرة على الأرض.

تذكرت النادي الأدبي والحفل، غادرت الدار دون أن أهتم بمنبهات سيارات الأجرة وإشارات قائدي بعض السيارات التي تشاركني في الطريق.

باب النادي مغلق، اتجهت إلى سيارتي وفتحت بابها وجلست خلف المقود، أدرت المحرك وأخذت أمزق أوراقاً وجدتها على المقعد تحوي نصاً شعرياً، نثرت القصاصات على رصيف وإسفلت الشارع.

قادتني السيارة إلى خارج المدينة. شعرت بالعطش والجوع، توقفت بجوار مقهى ركاب متهالك سبقني إلى احتلال بعض زواياه مسافرون ران عليهم الصمت...

الفأر

دخل الدار في الثالثة صباحاً، توضأ وصلى ركعتي السنّة، وأخذ يبتهل كما اعتاد قبل الرقاد.

خلع ثوبه واستلقى في الفراش الممتد على الأرض في غرفة الجلوس، بعد أن أطفأ الضوء.

انقلب على جانبه الأيمن. شعر بخدر في ذراعه الأيسر، حيث كانت الكف تحت صدغه.

اعتدل، ثم نام على بطنه بعد أن دفن رأسه في الوسادة. سمع حركة حوله. انصرف إلى أعماقه، بينما فأر بدأ يقرض قدمه ويلتهم أصابعه، أدغم في ظلمة دامسة .

جاء صوت قرع على الباب الخارجي مختلطاً بصوت دقات الساعة. تنبه، تأمل الساعة. شيء يحجبها عنه. جلس في الفراش. تلفت حوله، كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة.

الفأر مازال يقرضه. تمدد مجدداً. أغمض عينيه وشبك ذراعيه على جبهته ورحل.

انبجاس

تشكلت الأحداث، نما الموقف الإيهامي حتى نزح ارتهان البياض إلى مساحة من السواد طفحت إلى السطح، وهو يرى الانتفاخ يكبر.

لفت نظره زميل في العمل عندما تحدث عن تضخم بطنه فلم يهتم، أمام نظرات زوجته تسرب قلق إلى أعماقه، زار الطبيب فكانت الفحوصات إيجابية لم توضح الأشعة أسباباً غير طبيعية للانتفاخ.

قرر السفر إلى القاهرة للعلاج، في الطائرة شعر بآلام شديدة في أسفل البطن فأسرع إلى الحمّام، لاحظت المضيفة حبات العرق على جبينه.

استقل سيارة أجرة، أخذه السائق إلى فندق ذي ثلاث نجوم، كانت موظفة الاستقبال لبقة وأنيقة، حمل أحد العمال حقيبته إلى غرفته.

تمدد على الفراش، عاودته الآلام، اتصل بالاستقبال، كانت هي من أسرع إليه وجلست إلى جواره.

: إنه المخاض.

: ماذا؟

جلس في الفراش ممدداً ساقيه، شعر أنه تبول رغم أنفه الألم يزيد، أخذت تسرّي عنه وتدلك كتفيه تمسح بمنديل ورق عرقه.

هدأ، ساعدته على التمدد، أغمض عينيه، سمع صراخ وليد يتردد في جنبات الغرفة، الظلام يحيط به وصوت يقول.. إنه ولد.

غادر الفراش، دخل الحمّام وتخلص من ملابسه، بقع الدم هنا وهناك. انسكب الماء على جسمه، باب الغرفة يُفتح، كانت موظفة الاستقبال.

قال: هل أعرفك؟

هزت رأسها نفياً ومع ذلك قالت: نعم.

جلس في مكان اختاره بعناية في مدخل الفندق، ينتظر بروز وجهها وراء طاولة الاستقبال، عرف أنها ذهبت لتناول الغداء، قعد بجواره شخص ضاعت معالم وجهه همس.

: إنها تحبك. . .

: من؟

التفت، كان المكان فارغاً.

دخلت الفندق امرأة خلفها طفلان، توقفت المرأة عن الحركة عندما التقت نظراتها به، كانت تنسل إلى غرفته في منزل الأسرة عندما يختفي الجميع، وفى مساء اليوم الذي تجيء فيه يحلم بأن هناك من يغتصبه، كان ذلك قبل سنوات اختفت فيها.

ركض الأصغر نحوه، مد يده نحو الطفل يداعبه، كانت تبتسم مشرقة.

أحدهم يربّت كتفه، فتح عينيه، كانت هي. لحق بها إلى المصعد، سبقته في الدخول إلى غرفته.

ارتفع صوت المنبه، جاءه صوت زوجته يحثه على القيام، نداء اعتاده، وصل إلى المكتب متأخراً، سلم على من سبقه، تلفت حوله، دخل غرفة الخدمة وأشعل الموقد.

مريم

بعد عام من الحديث الليلي عبر الهاتف، وأوقات حرجة عاشها زوجي وأولادي الخمسة؛ ثلاثة أولاد وبنتان بحاجة إلي. قررت مريم التي لا أعرف سوى اسمها أن نلتقي. بكت هددت بالانتحار إن لم أستجب لرغبتها.

كان علي أن أقف على الرصيف المحاذي لمحلات الذهب في السوق. هي تعرفني وقد استطاعت بواسطة دموعها معرفة كل شيء، علامتها علبة حلوى حمراء اللون تضمها إلى صدرها مربوطة بشريط أبيض.

ترجلت من عربة زوجي وجلة، دخلت ممرات السوق وهدأت شيئاً، عدت إلى الرصيف المحاذي لمحلات الذهب.

كان يقف يرمق الفضاء ببصره، العلبة الحمراء ذات الشريط الأبيض يضمها إلى صدره بيده اليمنى، تجاوزته بعد أن تأكدت من وضع العباءة والنقاب، دخلت السوق، وعدت وهو لا يزال في مكانه.

هل انتحرت وجاء بدلاً منها؟ هل أرسلته وهي الآن هناك؟ عدت ووقفت بجواره.

قلت بصوت مرتفع:أين مريم؟

قال بصوت متهدج : اتبعيني.

تحرك والعلبة مازالت ترقد على صدره، دخل باحة السيارات، توقف بجانب عربة بيضاء اللون ثم فتح الباب الأمامي للراكب.

قال: اركبي.

أجلس بجوار رجل لا أعرفه، وضع العلبة على المقعد الخلفي، غادرنا السوق، شيء من الثبات كسبته، لكن صوتي لم يسعفني.وقف أمام بوابة عمارة من عدة أدوار، قال وهو يغادر العربة وصلنا.

سبقني إلى المصعد، سرت خلفه، لا يوجد أحد في المدخل، كان الدور السادس، فتح باباً بجوار المصعد، ترك لي مجالاً للدخول.

قال بصوت مرتعش: تفضلي.

صوتي يتردد داخل الشقة، حولي عدد من باقات الورود. وقف قبالتي.

قال وهو ينزع الغطاء عن وجهي: أنا مريم.

وهم

ما أعرفه أن شقيقة حنان تقيم مع طفليها في سكن خاص على غير وفاق مع زوجها الذي يهجرها أشهراً ثم يطل لزيارة طفليه ومساعدتها على مصروف البيت.

تعمل معلمة في مدرسة ابتدائية وتمارس بين وقت وآخر الكتابة الصحفية في جريدة يومية، تشغل وقتها بالعمل وزيارات الصديقات أو مساعدة والدتها.

حنان تهرب إليها من رقابة أمها. فكانت تشاركنا في لقاءاتنا، قليلاً ما كانت تمنحنا فرصة الجلوس وحدنا.

ذات مساء أوصلنا حنان إلى المنزل، كانت تجلس مع طفليها في المقعد الخلفي وفي طريقنا إلى سكنها طلبت مني الوقوف أمام البقالة التي في أول الشارع.

عادت لتجلس في المقعد الأمامي وطلبت مني البحث عن بقالة أخرى، طال تجوالنا، لم تكن تريد شيئاً إنما تبحث عن مساحة أكبر لنبقى وحيدين.

ذات ليلة في منتزه الردف، وحنان تواصل حديثها عن كل شيء قالت:

- تقدم أحدهم.. طلب يدي!

مفاجأة أكبر من اللحظة التي نحن فيها

- رجل صاحب منصب ومستعد لمنحي فرصة إكمال دراستي.

عواطف ترجّح أصغر طفليها والآخر يترجّح في اللعبة الأخرى، ترصد حركتنا وتحاول فهم ما نقول رغم العتمة والمسافة التي تفصلنا.

- أمي موافقة!

عرفت أنه مساء أمس قرأ الفاتحة مع أبيها في مسجد ابن عباس،كان وفق طموحات أسرتها وتطلعاتها.

2

جاء صوت عواطف عبر الهاتف تسعى لإدخال ابنتها المدرسة لا أدري كيف استجبت للنداء، تكررت الطلبات، كتب، أقلام وأشياء أخرى، هذه المرة الأولى التي أدخل فيها مسكنها.

كانت المفاجأة قيامها بتغطية وجهها، أخرجت من جيبي عشرة ريالات وأمرت الخادمة بأخذ الطفلين وشراء حلوى لهم.

3

حنان تسال عن حياتي بعدها، تتحدث عن معاناتها، انقطاعها عن الدراسة بسبب الحمل، انتقال عمل زوجها إلى مدن مختلفة، دعتني لحضور زواج أختها الثالثة .

قمت بشراء دار جديدة وأثناء إعدادها للسكنى جاء صوت عواطف تسعى للانتقال من مدرستها وعلي مساعدتها.

تتحدث عن سوء أخلاق مديرتها، ولم تلاحظ وقوفي أمام الدار حتى دخلنا الفناء، رفضت النزول من السيارة، فتحت الباب وحملتها وهي تتعلق برقبتي.

أخذت تبكي .

قلت: أعرف أن سامية تزوجت.

سامية تشاركها في شذوذها وسهرها، تزوجت متأخرة بعد فشل زواجها الأول، وانتقلت إلى مدينة أخرى.

وأنا في مكتبي ذات صباح جاء:

_ الأستاذ فيصل؟

_ نعم.

_ أنا أبو سعد... صالح الطيب.

لم أعرف الرجل ولا أذكر الاسم، دعوته للجلوس حتى أنجز ما جاء من أجله، التفت نحوه:

- أمرك.

كان زوج عواطف هذا ما عرفت منه، حرص على مقابلتي بعد وفاتها بسبب جرعة زائدة من مخدر.

وجد صوراً لي وبعض قصاصات جرائد في خزانتها الخاصة، قدم الأشياء داخل مغلف، أخذت أراقبه وهو يغادر المكتب وكل شيء فيه يشعرني بأنه يعرف عني ما لم أعرفه.

الأستاذ

قالت أجرب كتابة الشعر فقد تلمس الأستاذ في كتاباتي المنوعة التي جمعتها في دفتر أني شاعرة. أخذ يتصل الساعة الواحدة ليلاً وهو يقلب صفحات الدفتر المدرسي ناقداً ومصححاً حتى كتب أربعين نصاً شعرياً من خلال محاولاتي.

ذات مساء وجدته أمامي في مطعم المأكولات الأجنبية، كان يجلس مع زوجته فطلبت من أختي وزوجي أن نجلس حول الطاولة المحاذية.

كان الحاجز الخشبي يفصلنا، صوته الخافت يصلني، تعمدت رفع صوتي ونحن نتحدث، كنت أختلس النظر عبر فتحات الحاجز الصغيرة، صوتي لم يؤثر فيه، تماديت في الجدل وأخذت أختي تحدق بي باندهاش، عندها شعرت بأني وصلت إليه.

بعد العشاء سافرت مع زوجي الذي حضر كما هي عادته كل أسبوعين، بعد أن كُلِّف العمل منذ أشهر في

مدينة أخرى، أخذت إجازة خمسة أيام من عملي، كانت المفاجأة مشاهدتي قصيدة في صفحة الثقافة تحمل اسمي، عدت إلى المعتاد، كان مساء يوم السبت يملأ فضاء حجرتي، همست في أذن شقيقتي بأني مدعوة للعشاء.

ينتظرني بعربته في مدخل شارعنا، تلفت حولي دون أن أهتم بدخول المركز التجاري زيادة في الحذر، إنما اتجهت إليه رأساً، لم يفتح الباب، صعدت إلى العربة مرت دقائق حتى قلنا في صوت واحد مساء الخير.

دفتري المدرسي يقبع على المقعد فأخذت أقلبه، توقف أمام أحد الفنادق متريثاً ثم دخل البناء. اخترنا طاولة جانبية في المطعم، طلب مني رفع الغطاء عن وجهي.

- إنه أنت.
- أنا.
- أجل تلك الليلة في المطعم!

أخذت أضحك كثيراً. تحدث عن تجربته الطويلة وإحجامه عن النشر رغم وجود أعمال كثيرة مخطوطة منها ما تسرب للصحف.

حاولت أن أحاسب بدل العشاء فرفض وسبقني إلى

المغسلة، أخذت أتابع حركته ببصري، إنه ذو عرج خفيف، أمسك بيدي حتى خرجنا من مطعم الفندق، أوقف العربة أمام مدخل العمارة، وقفت في المدخل حتى تحرك.

تمددت في فراشي أقلب الدفتر فوجدت أربعين قصيدة هي جميع كتاباتي ورسومي والقصيدة المنشورة من ضمنها فأخذت أضحك.

زاد قلقي وأنا أنتظر صوت الأستاذ الذي تأخر. اتصلت به في الصحيفة التي يعمل بها، بحثت عن عنوانه ورقم هاتفه في الدليل، أعرف اسمه الأول ولقبه.

هناك عدد من الأسماء يحمل لقبه، أخذت أتابع الأرقام في الدليل، جاء الرابع يعرفه.

ـ إنه أخي.

ـ أين؟

ـ تعرض لمرض وسافر للعلاج.

شيء في داخلي تحرك، اخترت نصاً حزيناً نشرته، ونشرت آخر مع الحروف الأولى من اسمه.

ذات مساء جاء صوت يطالبني بالتوقف عن نشر القصائد لأنها للأستاذ. . . سألت عنه.

ـ إنه في السجن.

عرفت أن زوجته ادعت عليه بمحاولة دهسها بالعربة عندما أنزلها أمام باب المدرسة التي تعمل بها.

ـ إنه شعري.

ـ الجميل إنه نشر باسم مستعار.

ـ كيف؟

ـ لو نشر باسمك لاتهمك بالسرقة.

كان يبتز الآخرين بوهم الشاعر وهاجس الكتابة، أقفلت الهاتف، جاء زوجي متأخراً، طلب إعداد حقيبة سفره، وأنا في مكتبي أقلب ملفات الموظفين، فتح الباب بهدوء، كانت أختي جاءت لزيارتي بعد أن أنهت موعداً مع الطبيب الذي يتابع حملها، نهضت معها حتى الباب. لحظت الواقف في الممر، أخذت أتبعها بنظري حتى اختفت. أغلقت الباب ثم فتحته، الرجل في مكانه فتحركت نحوه. كان الأستاذ وقد جفت الحياة في كيانه، ارتديت العباءة أمسكت بيده وغادرنا المبنى.

الشتاء

أولاده كان نزف دمه لا يعنيهم، فبحث عن اسم يضم تحت أحرفه ما لفظه زمن جريح.

أراد ربط الاسم بالواقع، تبسم عندما اصطدم بصره بالقمر الذي اكتمل، شعر بلدغة البرد، ألقى التحية على صاحب الوجه الذي أخذ يعتاده في مدخل المقهى.

المســــجـــد

وقف عند فتحة الباب، تنقلت نظراته بين إسفلت الشارع الذي تراكم عليه التراب، وكوم المخلفات في الأرض المحاذية للمسجد الجديد المقابل لمنزله، وقد تأخر افتتاحه بسبب عدم وفاء فاعل الخير الذي لم يف بوعده فأخذ أهالي الحي يساهمون في إنجاز ما تبقى.

مد أحدهم الكهرباء وساهم آخر بالماء وتوسط ثالث لدى شركة من أجل تعبيد الممرات حول المسجد.

باب المسجد مفتوح وصبيان الحي يتراكضون للدخول. تذكر أن جاره قال قبل يومين: سوف نصلي المغرب يوم الخميس في المسجد، أغلق الباب واتجه إلى المسجد.

عندما حاذى النوافذ سمع المصلين يقولون "آمين"، مد الخطى ودخل. لحق الإمام راكعاً، أكمل ما فاته من الصلاة. تلفت حوله كان المصلي الوحيد.

الرحـــلة

بعد ألف عام عاد، أخذ سيارة أجرة، يعرف أين تقيم أسرته، الشوارع تحمل أسماء جديدة، السائق غير عربي تفاهم معه بالإنجليزية.

تذكر أنه سافر منذ عشرين عاماً لإكمال دراسته الجامعية في مجال الطب، بين مقاعد المكتبة، وغرف وقاعات الجامعة ارتبط بها، أخذته إلى أسرتها فتعرف على أمها ووالدها، وأخذ يشجع النادي الرياضي الذي تشجعه.

ذات صباح عرف أنها حامل، شعر بالذنب وقرر الزواج منها، اندغم في الدراسة حتى حصل على الدكتوراه فاستقطبه مركز البحث العلمي في الجامعة، وقد جاء مولوده الثاني ثم الثالث.

تذكر أسرته عندما جاء وفد من الوطن لعقد اتفاقية علمية مع الجامعة، تحدث معهم بعربية خجلى زرعت في داخله هاجس زيارة أهله، أخذ إجازة من العمل ثم أوصلته زوجته إلى المطار.

توقفت سيارة الأجرة أمام بوابة ما زالت كما هي، قرع الباب. لا أحد هناك، زاد في ضرب الباب. ترجل السائق أخذ يساعده، جاء آخر من الشارع يركض، وقف بين الاثنين، كان من جنسية السائق، عرف أن الدار تحولت إلى مستودع، وأن صاحبها يقيم في نهاية الحي.

فتح الباب، كانت عاملة غير عربية عرفت اسمه، أخذت تنادي من بالداخل، خرج شاب عرف أنه شقيقه الأصغر من خلال شجة يعرف أسبابها في وجهه، تعانقا. أخذت أمه تبكي، جاء والده من محله التجاري غير مصدق، استعاد ذاكرته.

بعد أيام قرر العودة لإحضار زوجته وأولاده في مناسبة أخرى، وأن إجازته انتهت، ويخشى أن يفصل من عمله.

أخذه والده لمحله التجاري لإقناعه بالبقاء، في المساء كانت سيارة الإسعاف تقف أمام الدار انطلقت وهو في داخلها إلى مستشفى الصحة النفسية، بعد أن تشاجر مع الجميع لم يصدق الأطباء أنه يملك قدرته العقلية، الإحباط طوقه من كل مكان.

أخذ يعيد ترتيب أفكاره، لا شيء يساعده على الخروج، تقرب إلى أحد العاملين في المستشفى، طلب

منه إيصال رسالة كتبها لزوجته. البريد طال انتظاره وكرر المحاولة بعد شهر.

شعر بشيء يعتمل في داخله وهو يرى إدارة المستشفى والعاملين يتراكضون في جنبات المستشفى، دس أحدهم في يده ورقة صغيرة، ابتعد، كانت رسالة من زوجته تشعره بأنها في عداد الوفد وسوف تدبر خروجه.

بعد ثلاثة أيام كان خارج أسوار المستشفى في عربة الشركة التي تؤمن الطعام للمرضى مع عمال الشركة داخل صندوق السيارة وقد ارتدى ملابس الشركة حتى لا يمنع رجال الأمن خروجه.

أمام باب الشركة كانت تنتظره سيارة أحد موظفي سفارة بلدها وفي داخلها زوجته. اندس في العربة. وفى منزل الموظف بدل ملابسه وحلق شعرة واستحم، أصدرت السفارة جوازاً باسمه الجديد وأخذته السيارة مع زوجته إلى المطار.

مــــدى

بينما قال زوج الأم: جاءت إلينا تبحث عن صبي يخدمها أيام الصيف فكان ناصر الطفل المناسب.

قالت الأم: هي تملك العمارة التي نسكن أحد أدوارها الثلاثة تطل كل صيف برفقة والدتها وباقي عائلتها ولما غدت وحيدة خطفت ناصر برضا مني.

قالت: تجاوزت الأربعين أستاذة في الجامعة: أخذت ناصراً لأني وجدت فيه الحلم.

قال ناصر: لم يأخذ أحد رأيي سافرت معها في نهاية الصيف كنت أدرس في الثاني متوسط.

تسكن شقة واسعة في عمارة تمتلكها من أسرة ثرية مات جميع أفرادها، ورثت مع شقيقة لها تقيم في مدينة أخرى رصيداً نقدياً، اقتنت بجزء من رصيدها هذه العمارة.

جاءت الليلة الأولى صارخة. إذ إنها مارست واجبات الأم: دخلت الحمّام معي وأخذت تدعك جسدي بالصابون ومواد أخرى.

ازدحمت الأشياء في غرفتي وكانت دراستي موفقة نجحت في الصف الثاني وعند نيلي المتوسطة، أقامت حفلاً لابن أختها المتفوق في دراسته وجمعت بعض زميلاتها وأولادهن

1

بعد الحفل دفعني التعب إلى التمدد في فراشي بثيابي ودخلت هي الحمام. لا أدري هل نمت. كانت تقف على باب الغرفة.

دخلت الثانوية واخترت القسم العلمي، زادت مهامها العملية في الجامعة إذ تجعلها تتأخر فتقدم إلى مديرة المنزل الغداء، مع الوقت اعتدت إذا عدت من المدرسة النوم حتى إذا عادت نتغدى معاً.

اجتزت المرحلة الأولى بنجاح، والدتي تُوفّيت وزوجها نسيني وإخوتي يقابلونني بتحفظ لأني أخوهم من الأم، شعرت بحزني، كنت في غرفتها وهي تراجع أوراقها خلف مكتبها، وأنا أرقد في فراشها بعد أن أنجزت كتابتها، اندست في الفراش وأنفاسها حولي وهي تحدّق بسقف الغرفة. الأرض تميد بي إنها تبكي.

في الصباح تابعت استعدادي للخروج، لما عدت من المدرسة وجدتها قد أعدت الغداء، في المساء أشرفت على استذكار واجباتي، بعد المغرب خرجت ثم عادت متأخرة بينما كنت أجلس وحيداً أمام التلفاز.

2

حصلت على الثانوية بتفوق أهّلني لدخول الجامعة، استخرجت لي جواز سفر كما حصلت على مشهد بأني محرم بصفتي ابن أختها حتى نسافر إلى الخارج.
..عرفت أنها حامل من زيارتها للأطباء فتأخرنا في العودة حتى ولدت، أخرجنا شهادة ميلاد للطفل باسمي واسم امرأة أخرى لقاء أجر مالي. تم إصدار جواز سفر للوليد، في هذه الأثناء كانت تتصل بزميلاتها ومعارفها، إنها عثرت على الطفل الذي تحلم به وتسعى لتبنيه.

التحقت بالجامعة ولما تخرجت سعت إلى زواجي من ابنة زميل لها وابتعاثي عن طريق الجامعة، بعد عام على البعثة لحقت بي إذ كانت في إجازة تفرغ علمي، قدمت لي مفتاح خزنة تخصها في البنك الذي تتعامل معه، ولما اطمأنت إلى ذلك عادت. حمل الهاتف خبر وفاتها

فقطعت دراستي وعدت مع زوجتي، جاءت شقيقتها وأقارب لأول مرة ألقاهم.

3

الابن الذي كان في السادسة أدخلته قبل موتها مدرسة خاصة، يدور تائهاً بين الحضور.

تذكرت المفتاح فأسرعت إلى مبنى البنك، كانت وثائقها المالية وغيرها داخل ملف رتبته بعناية تامة لشعورها بالموت. دونت مجموعة من أسهم تملكها في شركات مختلفة باسمي واسم زوجتي، كما تنازلت عن أرض في مخطط جديد عن طريق المحكمة لي وحولت ملكية العمارة باسم ابنها وتركت جزءاً من تركتها لشقيقتها وباقي الورثة من الأقارب.

حاول بعض الأقارب الطعن في تصرفها، غير أن صحة الوثائق وتقدير الجامعة ومعارفها لدورها الحياتي والعملي أحبطا كل محاولة، رفضت زوجتي احتضاني لابن السادسة فاعتذرت عن إكمال البعثة.

قال ناصر: وها أنا بعد عشرين عاماً مع ابني ندير مؤسسة علمية تحمل اسمها.

الشـــــرى(*)

تحقق الوهم، أبرزت شاشة الصراف الآلي عند سحبه خمسمائة ريال من حسابه أن رصيده عشرون مليون ريال. هذا ما أكدته الورقة التي تكشف الحساب بعد أن كرر تدقيق أرقامها، وهو يجلس في سيارته يتابع حركة الشارع بنظراته الزائغة.

في التاسعة من صباح اليوم الثالث كان يقف في طابور يتكون أمام شبابيك الصرافين، جاء دوره بعد نصف ساعة، خرج من غرفة مدير البنك يحتضن كيساً من القماش في داخله ثمانية ملايين ريال، اتجه إلى بنك آخر وفتح حساباً جديداً أودع فيه ستة ملايين ريال ودس المليوني ريال الباقيين في مخابئ داخل السيارة، في المساء أنهى صفقة شراء منزل بمساحة أكبر في موقع أفضل، خلال أيام أثثه بفرش جديد ثم انتقل إليه مع

(1) (الشرى : داء يصيب الجلد أحمر كهيئة الدراهم)
والشرى : الحنظل

أسرته، لم يتغير سلوكه ولم ينقطع عن عمله ولم يلاحظ زملاء العمل أي تغير في تصرفاته.

بعد شهر سحب ثلاثة ملايين ريال وسافر إلى مدينته القديمة الطائف، زوجته التي لا يخفي عنها أبسط أموره أوهمها أنه في مهمة رسمية، قام بشراء منزل جديد ثم أخذ غرفة في أحد الفنادق وأخلد للنوم.

في مساء اليوم الثاني أخرج من بين أوراقه قصاصة تحمل أرقام هواتف أصدقاء قدماء قدم نشوء المدينة، جاء صوت بدرية لم تعرفه، سعت إليه منذ عام في حل مشكلة مالية فلم يتمكن، استمع حتى أنهت عتابها فأخبرها أنه جاء لمساعدتها، الهاتف الآخر لا يعرف صاحبته التي سعت إليه عن طريق أحد الأصدقاء لمساعدتها في حل مشكل حدث في العمل، تردد في استدعائها جاء الصوت مختلفاً، عرف أن الهاتف لأخرى بادلها الحديث ثم طلب منها إبلاغ سامية بأهمية محادثته.

أخلد للنوم حتى سمع أذان العشاء يرتفع والظلام يخيم على الغرفة، أرقام متعددة على هاتفه الجوال، كانت زوجته تبحث عنه وابنه يحتاج إلى نقود لتأمين مراجع للجامعة وابنته المتزوجة تطمئن إليه، وسامية سألته عن أمره بعد أن انتهى إشكالها بمجازاتها على خطأ لم ترتكبه.

اتجه إلى وسط المدينة حيث أقام، تجول دخل

المقهى الذي اعتاد ومع صوت الشيشة ورائحة الجراك أخذت الصور تتحرك.

في التاسعة صباحاً كان يعانق أحد الأصدقاء في مقر عمله القديم، ذكره بمشكلة سامية فطلب ملفها ورفض مساعدته حتى يلبي دعوته للعشاء، وافق بشرط إعادة الاعتبار لها حتى تتجاوز شماتة زميلاتها.

بعد العشاء أخذ صورة عن قرار إلغاء الإجراء السابق بحق سامية ثم هاتفها طالباً منها مقابلته قبل ذهابها إلى العمل. اعتذرت بأنها ترافق إخوتها أثناء خروجهم للمدارس فأقنعها بالتأخر، انتظرته أمام متجر لا يبعد كثيراً عن مسكنها، بادرته بخوفها من توبيخ مديرتها، أخذ يضحك وبعد تجاوز الحي نزع الغطاء عن وجهها .

انزوت في المقعد حزينة من تصرفه وقد سهمت بنظرها بعيداً، سألها عن مقر عملها فأجابت وهي ترصد الطريق، دس في كفها الرابضة على فخذها صورة قرار عودتها إلى عملها السابق فلم تلتفت لحركته، أوقف العربة وأصر على أن تقرأ الورقة،صرخت من المفاجأة وأخذت تقبله.

نبهه صوت بدرية التي أخبرته بأخذ ورقة لمراجعة المركز الطبي، لمحته فجاءت مرتبكة وغطاء وجهها الشفّاف يكشف عن جمالها، بعد أن استقرت بجواره

سألها عن أحوالها فجاءت ردودها مقتضبة، حدثته عن زميلاتها في العمل ومرض والدها الأخير، تجاوزت الأربعين ولم تتزوج، رنة صوتها حزينة.

أوقف العربة في ظل شجرة وسط شارع تحت جوانبه محلات تجارية، سحب كفها المندسة بين ثنايا العباءة وطوق معصمها بسوار من الذهب، رفعت يدها إلى مستوى نظرها فلمح ابتسامة صغيرة كست وجهها.

دخل إحدى غرف مقاهي طريق الشمال، طلب من النادل شيشة وبراد شاي، أخذت تتحدث عن أمراضها التي لم يكتشفها الأطباء، وعن معاناة والدها من تصرفات إخوانها ومع الحديث عرف أنها تدفعه لمضاجعتها تجاوز القلق بضمها ضاحكاً، أخذت تشاركه الضحك وانهارت مقاومتها فتمدد الاثنان على فراش الغرفة.

في الفندق تناول الغداء مع صوت زوجته، في الثامنة كان يتناول العشاء مع سامية التي دعته بحضور زميلة لها إلى مطعم للمأكولات الأجنبية، وعبر الفندق حجز على رحلة العاشرة ليلاً.

جاء صوت بدرية تخبره بسفر والدها للعلاج ومرافقة شقيقها الأكبر، أخذت تشرح كيف حول إلى المستشفى في العاصمة ورفضت أمها السفر معه، طلب منها محادثته

عند العاشرة صباحاً لوجوده مع أصدقاء في عشاء خاص. جاء صوت زوجته تشعره بأن الهاتف لم يتوقف عن الرنين. يبحثون عنه، تخيل ذلك وهو ممدد في الفراش بعد عشاء صاخب مع ثلة من الأصدقاء.

التاسعة صباحاً نهض من النوم، وهو يتناول الفطور في مطعم الفندق جاء صوت بدرية، طلبت منه أن يحدثها عن سهرته، أخذت تحاصره بالأسئلة غير أنه تركها قلقة بضحكه من سذاجتها. خرج من الفندق متجولاً في الشوارع، ومع صلاة الظهر سلم حارس مقر بدرية مغلفاً في داخله نقود وقلادة ذهبية تحمل تاريخ اليوم والحرف الأول من اسمها، جاء صوتها مرتبكاً، دخل أحد المقاهي خارج المدينة، طلب شيشة ومياهاً غازية.

في التاسعة ليلاً كان في بهو الفندق، سلمه موظف الاستقبال بطاقة صعود الطائرة، تناول فنجان قهوة منتظراً تسديد تكاليف إقامته والسائق الذي يوصله إلى المطار في الواحدة صباحاً دخل المنزل، الهدوء يخيم على الجميع، دخل في الفراش تنبهت زوجته فقالت بصوت خدر وصلت، أعطته ظهرها وواصلت النوم.

الــــذئبــــة

في تحركي بين وقت وآخر بحثاً عن ابنتي وأختي الصغرى، أجدها أمامي تركز بصرها علي. وإذا عرفت أني لمحتها حولت نظرها مبتسمة.

سألت مرافقتي في الحفل عنها، أنكرت معرفتها. فأخذتها إلى حيث تجلس فلم نعثر عليها، كان مقعدها خالياً.

انتهى حفل الزواج. وتقاطرت النساء خارجات من قاعة الأفراح على نداء الرجال عند البوابة، جاء صوت شقيقي، غادرنا الحفل، أوصلنا مرافقتي إلى دارها.

سيارة زوجي واقفة، فتحت باب الشقة، كان نائماً في الفراش وطفلي الصغير بجواره. بعد أيام وأنا في عيادة الأسنان بالمستشفى العام، وجدتها، جلست بجوارها، لم نتبادل الحديث، كان دوري يسبقها، لما خرجت من عند الطبيب لم أجدها، كان مكانها فارغاً.

زوجي داخل سيارته في مواقف المستشفى يتصفح

جريدة، لم نتبادل الحديث، أوصلني إلى الدار ثم عاد إلى عمله، ابني نائم وكذلك طفلتي، عاملة المنزل في المطبخ تجهز متطلبات الغداء.

البارحة أنا وزوجي وبنتي وابني، كنا نتسوق في المركز التجاري. لمحتها تدفع أمامها عربة التسوق، فأخذت أدقق في تفاصيل جسدها. إنها أنا؟... ثوبها، عباءتها، وغطاء الوجه الشفاف.

شعرت برعشة تسري في جسمي. أمسكت بيد ابنتي وعدت إلى السيارة، جاء زوجي يدفع عربة التسوق، كانت تسير بجواره حاملة ابني، فتح مخزن السيارة الخلفي، ثم فتح باب المقعد الخلفي، تعلق ابني برقبتي من الخلف، ابنتي نزلت تساعد والدها في ترتيب المشتريات.

دخل زوجي العربة، مد نحوي ورقة حساب ما تم شراؤه وهو يستوي جالساً خلف مقود العربة، لم أرفع كفي لأخذها كما هي عادتي في تدقيق فواتير الشراء.

ركز بصره علي، دس الفاتورة في كفي الرابضة على فخذي.

شعرت بحرارته، ابنتي تجادل أخاها بشأن علبة حلوى رفض اقتسامها معها. تحركت العربة. زوجي يتحدث، تجاوزنا عدداً من إشارات الطريق.

ونحن ننعطف يمنة حتى ندخل شارعنا تنبهت من خواطري، زوجي يهم بإغلاق راديو العربة. ابني وجهه ملطخ بالحلوى. ابنتي منزوية في ركن المقعد وقد انحسر الثوب عن فخذها.

فتحت أبواب السيارة الأربعة. دخلت الدار وخلفي الجميع. أسرعت عاملة المنزل إلى العربة لإنزال ما تسوقنا.

وقفت أمام مرآة خزنة الملابس أبدل ثوبي. كانت تقف بجواري ضاحكة، حاولت تقليد ضحكتها فنبتت لي أنياب ذئبة. غطيت وجهي بكفي وأخذت أبكي.

العـــون

كان علي أن أركض حتى لا يتوقـف نبض الحياة في شرايينهم. وفي الصباح أسعى إلى زرع بسمة فرح داخل أسرتي الصغيرة.

قالت شقيقتي: إن ابن خالتي بثوبه القصير وذقنه المشذبة وعباءته الذهبية الفاخرة، حصل على سيارة فارهة، ونصف مليون ريال، عـوناً لتأثيث منزل ابنه المتزوج حديثاً.

قال ابني المريض، ونحن في طريقنا للدار، التي مازالت مرهونة بسبب حالته الصحية، اليوم سوف تمطر السماء. حدقت فيه مشدوهاً ولم أعلّق. في التاسعة ليلاً وهو يقرأ أخبار ناديه الرياضي في صحيفة صفراء لفظ أنفاسه، بينما كانت السماء تمطر في الخارج.

الخـــــادمـــــة

سرى قلق وحزن أسود في أعماقهن وهن يتناثرن في مدينة جديدة للعمل، كان حزنها أشد وطأة من معاملة أحد رجال الشرطة، وهو يقارن بينها وبين صورتها في الجواز مركزاً نظرة عداء، دفعتها للانزواء خلف أخرى.

جاء سيدها، كانت الثالثة من ثلاث تأخر استلامهن ودعت الاثنتين في العربة، وجدت سيدتها تجلس في المقعد الخلفي، التقت نظرتها الوجلة عينيّ السائق في مرآة السيارة.

داخل المنزل وبعد أن تخلصت المرأة من ملابسها السوداء، أخذت تتفحصها. جاء من أبواب الغرف، طفل في الرابعة وبنتان تكبرانه، تعلق الطفل بها، شعّ في داخلها فرح.

الصمت

تداعت الصور، لمحه في باب المسجد يمسح دمعه بطرف غترته وقد غطى وجهه بطرف عباءته المذهبة، وفجأة أطلت في الثانية عشرة من عمرها، ريانة الجسد التصقت به عانقته، كفه تلامس مؤخرتها.

تنبه من النوم أخذ يستعيد حلمه، يعرف الرجل الذي يبكي، الظلام يخيم على غرفة النوم، لا يدري كم هي الساعة، زوجته مازالت أمام التلفزيون، صوتها يصله تتحدث في الهاتف، أغمض عينيه وعاد للنوم.

جاءت والدته التي تُوفّيت منذ عشر سنوات، توسد فخذها، نور بهي يملأ الغرفة، أصابعها تعبث بشعره، لامست أناملها أثر ورم صغير في مؤخرة رأسه، أخذت تتحسسه، غفا، سمعها تتكلم، كانت الطفلة تجلس أمامه تصب القهوة لوالدته.

فتح باب غرفة النوم، تنبه، شعر بغصة في حلقه، أخذ يغالب الاختناق، تذكر أن والدته كانت تتحدث، لكن

صوتها كان غائباً وتذكر أن الطفلة لم تصب له فنجان قهوة.

أسرع إلى براد الماء، أخذ يقاوم اختناقه بالماء المثلج، جاءت زوجته، فأخذت من يده كأس الماء، وسحبته إلى غرفة النوم وتركت الباب مفتوحاً.

الأرض

توفرت وسائل النهاية، حيث لم يبق للسلام باب، مع انتهاء العام الثاني على كفّ يدي عن العمل، وأوقف راتبي بعد خروجي من السجن الذي دخلته إثر دعوى كيدية تضامن أطرافها، حتى تردعني عن المطالبة بحقوق أسرتي، التي استباحتها ثلّة من التجار، فكان بناء المدرسة على أرض تم الاستيلاء عليها خدعة.

أخذت زوجتي معي، وتركت طفلي الذي ولد وأنا في السجن عند والدتي الأرملة، واتجهنا إلى مبنى المدرسة.

كان أذان العشاء يرتفع، وبعض المارة في الشارع، تمهلت حتى وازنت الباب المغلق وزدت الضغط على دواسة البنزين فجمحت السيارة، توسطنا حجرات المدرسة التي بنيت على شكل حرف (يو) الإنجليزي.

تداخلت أصابع كفي اليمنى مع كف زوجتي اليسرى، شملنا صمت، أشعلت قداحة السجائر.

رغـــبة

جاءت الوظيفة خارج مدينتنا، في قرية تابعة لمدينة أخرى فاتفقنا على السكنى معاً.

في مساء يوم التسوق، شيء شدنا في سائق سيارة الأجرة الذي أوصلنا إلى المنزل.

طلبت منه التي ساعدته على ترتيب مشترياتنا في الممر أن يشاركنا في العشاء.

وردة

تنفي إدارتنا ما ذكره السيد م. ص بأنه دفع قيمة عشاء مستشار الإدارة وحرمه وشقيقته الآنسة وردة، التي أصرت أن تمضي بقية الليلة الماضية برفقته، حيث عرف المستشار بسفر زوجته للاطمئنان إلى صحة والدتها.

سعادة المستشار ذو خبرة وسيرة حسنة، تعاقد مع الإدارة منذ عشرين سنة، قدم فيها مقترحات وآراء، وطور أداء الإدارة، التي حصلت على شهادة الأيزوا العالمية.

ألم

تقطعت أنفاسه والعرق يتصبب بغزارة، كانت هي.
أخذ يركض، شاهده أحدهم، لحق به، وتبعه الآخرون.
فتح عينيه، نهض من الفراش، وجدها في غرفة الأطفال.

غفـــوة

تمدد في مقعده أمام شاشة التلفزيون، يتابع أحداث مباراة بين فريق النادي الذي يميل إليه وفريق نادٍ آخر.

فريقه مهزوم بهدف جاء في الدقيقة السابعة، سيطرت عليه لحظة خدر فنام.

شعّ نور من سقف المنزل، طار كما يحلق النورس، حوله صوت أطفاله الثلاثة وزوجه، أدرك أنه وصل، دفع بوابة أمامه ودخل، فانهالت عليه عيارات نارية من كل مكان، تنبه لصراخ أطفاله وزوجه.

كان فريق ناديه المفضل يسجل هدفه الثاني، تلفت حوله لم يكن هناك أحد.

الـــــرابع

نجلس على حافة الطريق المؤدي إلى الثمامة، توقفت عربة وأطل قائدها، سلم ثم قال أكمل، الرابع.

لم ينتظر ردنا، ترجّل وجلس، أخرج من جيبه ورق اللعب.

الرهـــــان

أصر على الاعتذار، حذّره مرافقه سوف تدمرك، لم يهتم بل وقف على بعد من الخيمة التي تضمها مع باقي أسرتها في منتزه وألعاب الشعلة الصحراوي، جاء رجل عجوز يسأله وآخر شاب، قال ما حدث رهان مراهقين أثناء مرورنا أمام محل بيع ألعاب وتحف، بالمصادفة هي الضحية التصقت بمؤخرتها وكأني أسعى للاقتراب من البائع، أخرجت رأسها من باب الخيمة وجاءت منفعلة ولما سمعت اعتذاره عادت.

قالت لزميلاتها في حافلة العمل، كان لا يدفع عن نفسه، انهلت عليه صفعاً وركلاً وخلّصنه الواقفات للتسوق، تدخلت واحدة تجلس في المقعد الخلفي إنه أخي، خيّم صمت حذر على الحافلة التي وصلت إلى مقر العمل وتناثرن بين الممرات والمكاتب.

إيلاف

لـمـا اكـتـشـف إيـلاف أن الـحـزن الـذي مـزق أيـامـه الأخيرة، جاء بعد إدراكه أنه لا يعرف هدفه، فقد كان يسير مقتاداً من والد يدفعه للنجاح ويوفر له ما يريد وأم سريعة الغضب دائماً صوتها مرتفع.

جلس هذا الصباح على رصيف الطريق العام الذي اعتاده وبجواره مذكراته الجامعية، وأقبلت شاحنة فانتصب واقفاً ولـمـا اقـتـربـت ألـقـى جـسـده الـذي لا يـمـلـك بـيـن عجلاتها.

البياض

تداخلت الأصوات في المذياع، حرك المؤشر، لم يهتم بالسيارة التي حاذته من اليمين، عند التوقف بسبب الضوء الأحمر.

التقط وهو يحرك مؤشر المذياع صوتاً نسائياً يتحدث عبر هاتف، شعر بالملل من الزحام، فأخذ يمص إبهام يده اليمنى.

قالت المتحدثة في الهاتف (أما زلت تمص إصبعك كالرضّع) مرت العبارة بدون أثر، سوى أنها عاودت ذلك وهي تنبهه (أنت..أنت) تلفت حوله، كل العربات التي حوله ذات زجاج مجلل بالسواد، تغير لون الإشارة، تحرك.

عاد التشويش واختلطت أصوات الإذاعات فأغلق المذياع، الإشارات الخضراء تتوالى، أوقفه حاجز شرطة، أخرج هويته ورخصة القيادة.

طلب منه رجل أمن مغادرة العربة، عليه أن يقطع

الطريق المزفت حتى يناقش رجال الشرطة، المتحلقين حول عرباتهم في الجانب الآخر من الطريق.

عند خطوته الأولى انطلقت عربة تحمل أرقاماً أجنبية، مرقت كالسهم فوق جسده فلطخ الدم الإسفلت الأسود.

زرع إبهامه في فمه أطل وجه أمه باسماً، هم بإخراج إصبعه من فمه غير أن انطفاء أنفاسه، جعل صورته التي أخذتها أجهزة الشرطة، بفم مفتوح وإبهام معلق في فضاء أبيض، لم يستطع محلّلو الصورة معرفة سببه.

الطـــــائف

هبت عاصفة قوية محملة برمال الصحراء، وأشياء انفصلت عن جذورها، فقدت الرؤية أخذت تتلمس ما حولها، التصق بها فأنستها حرارة العناق قلق اللحظة.

غادرت المكان تتحسس طريقها إلى القافلة، دخلت الخيمة التي تضم أسرتها شاركتهم في الحديث، ولم تلمس فيهم أثر العاصفة التي حاصرتها في الجبل.

على مشارف الطائف توقفت القافلة مرة أخرى، جلست مع مجموعة من النساء بعيداً، خاطر دفعها للوقوف وأمام صمت مرافقاتها انداحت في ظلمة ما بعد الغروب، خطواتها تركض بين أشجار كثة، أنفاسه تملأ المكان.

تنبهت لهرج مرافقاتها وهن يتدافعن، استجابة لنداء رجال القافلة، لتناول طعام العشاء.

انفجار

في العاشرة ليلاً والمركز التجاري يعجّ بالمرتادين، دخل يحمل علبة مياه غازية وجلس على أحد المقاعد.

تبسم لطفل في الرابعة وقدم له علبة المياه، تابع الطفل حتى عاد إلى مجلسه بين نسوة حولهن أكياس المشتريات.

غادر مكانه وركب سيارة تنتظره أمام البوابة رقم واحد، بعد تجاوز إشارة المرور المحاذية للسوق دوى انفجار.

اصطفـــــاء

عدد موظفي المؤسسة التي يديرها يتجاوز ألفاً وخمسمائة موظف، وزع صلاحياته الإدارية والمالية، بين مدراء عامّين ورؤساء إدارات وأبقى النواحي القانونية تحت إشرافه، ومع كل هذه المشاركة كان الأمر يعود إليه، من خلال إدارة دائرية المسار.

حريص على بيانات الإحصاء فكانت الإدارات تدفع المراجع إلى تقديم عشرة استرحامات حتى يصرف حقوقاً مالية، تعاقدت المؤسسة معه لتنفيذ مشاريع في جزر واق الواق، أو ربط البحار السبعة بخط حديدي.

ذات مساء والقائد يتناول طعام العشاء مع ثلة من الأصدقاء، لمح محاورة في برنامج تلفزيوني، تقارب اسمها مع اسم أحد حضور العشاء فكان أن اقترح تكليفها عمل بحث، عن جدوى أسماك المياه الحلوة، تناسب المشروع مع تقاسيم وجهها، الذي يلفه غطاء أسود تبدى كدائرة بيضوية ناصعة.

اتصل بها مدير مكتبه وغدا حلقة الوصل حتى كان لقاء لشرح نقاط الدراسة، تولى مدير المكتب خلاله دور الحارس ونادل العشاء، في المقر الصيفي لمكتب المؤسسة.

استطاعت بوعيها العلمي أن تكون مستشاراً غير متفرغ، لتكتشف أن جميع موظفي المكتب الخاص، ينتمون إلى عائلة المدير وثلاثة من البدو، دورهم الظاهر / سائق / وحامل حقيبة / ومنسق مواعيد.

مارست حقوقها المشروعة، في اصطفاء جانب اكتشفته بعد عشرين عاماً من الدراسة العلمية، وعشر سنوات من الوظيفة فقدت خلالها زوجها فعادت إلى غرفتها في منزل الأسرة.

تهتم بابنها وتنمي أبحاثها، فكان تجاوز الآخرين المحطة التي حصرت طموحها فيها وإذا بها وحيدة، جاء الاصطفاء لينقلها من وهم بدون معالم إلى حقيقة الواقع،

حصلت على أرض شيدت عليها مسكناً، وساهمت في مخطط عمراني خارج مدينة الرياض حددت ربحها ومساهمتها بمجموعة من قطع الأراضي، التي سورتها لتكون مزرعة واستراحة.

خزنة غرفة نومها تحفظ وثائق هامة تمنحها الأمان،

الذي لم تفقده حتى وهي ترعى والدتها بعد وفاة والدها ورعاية ابنها، الذي وجد في جدته الحضن الدافئ الذي فقده عندها.

وهي في طريقها إلى مقر عملها، أخذت تقلب جريدتها التي تنشر مقالاتها ودراساتها كانت الصفحة الخامسة، تتحدث عن تسمم غذائي في عدد من المواقع، سياق الخبر يتجه إلى المؤسسة التي ترتبط معها بعقد عمل مستشار غير متفرغ.

طوت الجريدة والسائق يتوقف أمام بوابة الكلية التي تعمل فيها، فترجلت تاركة الجريدة على مقعد السيارة.

فـــــريج

لم أفكر في صورة المستقبل، وما سوف تكون عليه الأيام، فقط أحيا اللحظة التي تأتي من خلال معاش يومي معتاد، لا يحمل المفاجأة من عمل في دائرة حكومية.

تأخرت في مغادرة معهد الإدارة العامة فرع جدة، الذي أتدرب فيه منذ عشرة أيام، حتى يكون وصولي إلى الطائف متناسباً مع خروجها من المدرسة.

اعتدت هذا الأمر وكانت سمر تعرف نظام مواعيدنا فلا تحرص على مرافقتها في العودة إلى المنزل عند حضوري.

مع كوم العربات المنتظرة تداخلت عربتي، الوقت بطيء، ومعلمات وطالبات الثانوية يدلقن من بوابة المدرسة الموازية.

جاءت كما هي تعانقت أصابعنا، أخذت طريقي إلى الخروج من أتون الموقف، لم نتبادل الحديث حتى غادرنا المكان.

أمام باب المنزل ترجلت، على أن نلتقي بعد غروب الشمس، وفي المساء في مكتبي بمؤسسة العقار التجاري التي فتحتها باسم زوجتي حتى أوفر مورداً آخر، جاء صوتها معتذراً، فقد أتت شقيقتها المقيمة في الظهران مع أطفالها وزوجها لقضاء الإجازة التي حصل عليها، وعلي أن أحضر في العاشرة ليلاً.

تأخرت في المكتب، وما إن كانت العاشرة ليلاً، حتى كنت أترجل من عربتي في شارع مجاور، اقتربت من باب المنزل الموارب، دخلت لم يكن هناك أحد. سمعت حركة في رأس السلم، العتمة تحيط بالمكان، صوت مختلف تكلم فتوقفت عن الحركة، هبطت الدرجات واتضحت قسمات القادمة، كانت سمر التي تعرف أمرنا، اعتذرت بأن ريم ذهبت مع شقيقتها الكبرى إلى المستشفى لمعالجة أحد الأطفال، أنفاسها تلفحني والموقف يرفض التنازل فضم بيت الدرج عبثنا.

ـ ريم ـ

انتهت مدة التدريب، وانتهى العام الدراسي وظهرت نتيجة الاختبار، كانت ريم راسبة في مادة الأحياء، أخذت

تبكي عبر الهاتف ولم تنس فشلها والحديث عنه في كل لقاء، حتى توفر لها معلم يساعدها على استذكار درسها ومراجعة معلوماتها.

تباعدت مواعيدنا، وسافرت في رحلة عمل لمدة شهر إلى القاهرة، عضواً في لجنة تعاقد مع تخصصات هندسية للعمل في عدة إدارات تابعة للوزارة التي أعمل في إحدى إداراتها مديراً مالياً.

في رحلتي تزوجت ريم متخلية عن طموحها الدراسي، مددت مهمة العمل شهراً آخر حتى أنجز ملفات الأشخاص المختارين وتأمين سفرهم.

لما عدت خالط حزن عميق تفكيري لم أجد له تفسيراً، بعد أشهر جاء صوت ريم يطلب مساعدة والدتها في استخراج صك شرعي توكل فيه أحد المحامين متابعة حقوقها لدى وزارة المالية عن أرض استولى عليها أحد قطاعات الدولة، وكان اللقاء في باحة المحكمة.

مترهلة الجسم ذات مسحة جمال وشبق امرأة، ركزت نظرها علي وهي تتبع إشارة فتى يسير بجوارها، وخلفهما رجل أسمر اللون ممتلئ الجسم ملابسه بيضاء ناصعة.

- فـرج -

بعد أيام جاء الرجل الأسمر يبحث عن وظيفة سائق، عرفت أنه من خلال أخته التي تقيم بجوارهم، يستفيد أفراد العائلة من خدمته لامتلاكه سيارة أجرة، الواسطة ريم تذكرت لقاء العتمة، سألته عن سمر فعرفت أنه يوصلها إلى المدرسة وكذلك يوصل عبد العزيز الأخ الأصغر الذي شاهدته في المحكمة، أخذت أوراقه ورقم هاتفه، وطلبت منه المراجعة بعد عشرة أيام، كان مستعجلاً التوظيف، جاء صوت ريم التي أنجبت منذ أيام ولدين توأمين يرجوني مساعدته.

- سمر -

اتصلت بفرج الذي تردد في قبول عمل مراسل في مكتب فرعي للإدارة خارج الطائف، قرن قبوله بوصف الموقّت حتى لا يبتعد عن أخته الأرملة نورة، كان يكذب عرفت ذلك من سمر.

- نورة -

أقامت نورة عشاء خاصاً لزوجها حضره المدير العام،

الذي عانق ابنتها الوحيدة ذات السنوات العشر، وعرفت أن زوج نورة يعمل في قصر أحد الأمراء بالرياض وأن إقامتها في الطائف هي لمجاورة والدتها المريضة.

- عبد العزيز -

قام فرج بدعوتي ومجموعة من الزملاء، إلى حفل عشاء لمناسبة نجاح عبد العزيز في الثانوية العامة، ريم التي اختفى أثرها حضرت لتشارك عزاء والدها الذي مات فجأة تعرفت على زوجها أثناء العزاء، وبعد أيام علمت من فرج أن والد ريم، أقام مصنعاً للخمر في إحدى غرف الورشة التي يشرف عليها لصيانة معدات وسيارات المستشفى الذي يعمل فيه، يشاركه في ذلك مدير المستشفى الذي أوقف عن العمل بسبب عجز مالي وسندات مزورة عثر عليها في خزنة المكتب.

- .... -

طلبت ريم إيصال سمر إلى جدة حتى تسافر إلى لندن ملتحقة بزوجها.

كان جلوسها في المقعد الخلفي، وطفل في السادسة

إلى جواري يرافقها في الطريق، وأنا أزود السيارة بالوقود انتقلت للمقعد المجاور، ونحن نلج جدة اخترت طريق الكورنيش واستأجرت غرفة في فندق يطل على البحر وتمددت في الفراش، الطفل خرج إلى باحة الألعاب بعد تناول العشاء، وفي العاشرة ليلاً كنا نقف أمام بوابة منزل يحيط به سياج من الأشجار.

عدت إلى الغرفة في الفندق، نمت بملابسي ورائحة سمر تملأ المكان، تحت المخدة قارورة عطرها ورباط شعر أبيض، في الصباح وأنا أستعد للعودة وجدت في أرضية السيارة مظروفاً في داخله عدد من صورها العائلية، كان فيها زوجها الذي اكتشفت أني أعرفه وباقي أخوتها، لكن لم أجد ريم ولم أجد والدها. تناولت الغداء في مطعم الفندق.

الغـــانية

تبذلت الحكايات ونفق الصدق، زمن جد لا يحمل هوية تراقص فيه أشباح تريد سيادة من ورق، أوراق الأشجار الجافة تتكوم فوق أرصفة منازل حي قروا الفارعة المهجورة بعد أن تناثر باقي أفراد أصحابها.

وسكن ملاحقها أسر وافدة لا يوقف ممارساتها أحد، وإن استفاد بعض أبناء الطائف من خدماتها، ولذة مسروقة تمارس في غياب الرقيب.

قالت: وهي تحدث الصمت، ولدت في منزل من منازل قروا الفارعة، والدي الأسمر أحد خدم أمير عجوز اتخذ الطائف مصيفاً، رشيقة يلاحقني الجميع بنظراتهم وهمسهم، مكانة أبي الخاصة تفرض وجودي في أنحاء المنزل الذي نسكن أحد ملاحقه، وأمي السوداء إحدى عبيد القصر.

تفتح جسدي الأسمر بعيداً عن عيون أمي واهتمام

والدي، على يد سائق هندي، مارس طقوسه معي عندما ينشغل الجميع عنا.

في صباح يوم خميس وأنا في الثانية عشرة، طلبت مني إحدى سيدات المنزل إحضار صندوق حليها من مخدعها، كان الأمير في الفراش تنبه لوجودي، فجّر طفولتي وبهرته تفاصيل جسدي.

علمت أمي وهمست بذلك في أذن والدي الذي لا يدري ماذا يفعل، وسافر الجميع ولم يبق سوانا وجاء أبي متجللاً بعد قلق؛ يحمل تنازل الأمير عن المنزل لوالدي، وصك عتق والدتي، وأمر بموجبه تزوجت أحد حاشية الأمير الذي أقام في أسبانيا لظروفه الصحية، وسافرت إلى زوجي وبعد عشر سنوات عدت إلى رعاية أمي بعد وفاة والدي.

لم يعد المنزل كما كان، فقد تداعى الترف. مارست حقي في إعادة الحياة إلى جناته ورعيت دراسة أختي، وعرفني أخي على أسرة فتى يمني اعتدت مشاهدته كان أخي يرعى طلبات أسرة الفتى، من خلال توثق علاقته بالأب الذي يتعاطى المخدرات.

صديق أخى جاء باكياً عصر يوم قبضت فيه الشرطة على والده، احتضنته مواسية، أنفاسه تلفح صدري فسكن

روعه، قالت أمي بحدة، الرجل يستحق السجن. جاء أخي وخرج الاثنان.

مات الأمير وتفرقت حاشيته، عاد زوجي وطلب مني السفر معه إلى الرياض للعمل في منزل أكبر أبناء الأمير، كان منزلنا في طرف الحي الذي يتوسطه قصر الأمير.

احتفظ برشاقة ورخامة في الصوت ومرح ماجن، ذات ليلة قالت زوجة الأمير وأنا أساعدها على تبديل ملابسها بعد حفل موسيقي في القصر غنيت فيه مع الفرقة أني راقصة ماهرة.

زوجي استثمر إعجاب الجميع بي لمنافع خاصة، أطفالي تنمو مطالبهم ويتدرجون في التعليم بنجاح مع إهمال متزايد وجهل من والدهم، بعد حصول الأمير الصغير على الثانوية سافر إلى أمريكا للدراسة ولحق به ابني.

ذات ليلة طرق أحدهم بابنا، صوته أخافني وزرع في جسدي رعشة الطفولة، كان السائق الهندي، عرفت أنه حصل على الجنسية وأصبح صاحب شركة مقاولات هامة، جاء من الطائف يسأل عن رسالة بريدية تأخر وصولها من مكتب الأمير.

بعد هذه الزيارة، وافق زوجي على عودتنا إلى الطائف

والسكن مع أسرتي، أسرة اليماني صديق شقيقي بينهم فتاة عانس تحرص إذا تأخرت والدتها في الجلوس عندنا على الرقاد في فراشي ولبس منامتي.

بعد حفل زواج أقيم في صالة أفراح أحيته فرقتي النسائية التي شكلتها، أخذني قائد السيارة التي ركبت إلى فناء منزل مهجور في قروا، كان الحارس ينتظرنا، داخلي ارتبك والسائق يأمرني بالنزول جرني إلى غرفة معتمة، أخذ يلعق رقبتي فاستسلمت لشبقه والحارس الأسمر الممتلئ الجسم يقف بالباب مضطرباً؛ أخذت أضحك، دفع السائق والتحم بي، رائحته تزكم أنفي ووجدت معه لذة فقدتها، في الثامنة صباحاً كنت أدخل الدار الهاجعة.

حول مائدة الغداء تبادلنا الحديث المعتاد، رن الهاتف بادل أخي المتحدث الحوار بصمت، عاد وجلس بجواري، قال بحزن إن زوجي الذي يرقد في المستشفى مات.

وجدت في أسرة (بنقالين) شيئاً من رغبتي في زراعة فناء المنزل والعناية بالنظافة فتحت لها أبواب الجناح الذي ولدت فيه.

أختي الجامعية تزوجت سائق السيارة التي توصلها مع زميلاتها إلى العمل وهجرت المنزل، صحة أمي تدهورت،

وأخي الذي يشاركني المنزل رزق ولداً من زوجته المصرية.

تذكرت السائق الهندي، أخذت سيارة أجرة حتى لا يلاحظ أحد قصدي، كان منزله مغلقاً وعلى الجدار إعلان للبيع.

الشيشة

تباينت الصور متهالكة، فالأشياء المبهجة ضلّت طريقها، وغدا يومي بما فيه من وسائل لا يرتبط بي، قال مشرف برنامج التدريب الذي دخل علينا في آخر محاضرة إن علينا مراجعة العلاقات العامة في المركز حتى نستلم سندات اشتراكنا في البرنامج، فتوزعنا في جنبات المطعم لتناول الوجبة الأخيرة، تعددت الدوائر حول الطاولات ودائرتي تناثر أفرادها بسرعة فبقيت جالساً.

غادرت فناء مركز التدريب إلى مقر السكن حيث تقبع سيارتي الوانيت، التي جاءت منذ أيام مع مبلغ نقدي كدفعة أولى من ثمن أرض بعتها وأنا أستعد لبرنامج التدريب الذي رشحني له رئيس القسم الذي أعمل فيه.

مع ارتفاع أذان المغرب غادرت السكن، توقفت عند عدد من إشارات السير، وأمام مطعم شعبي اعتدت تناول العشاء فيه، جاء يسألني عن موقف السيارات المغادرة إلى الطائف، قدم من مصر للعمل معلماً في مدرسة لتحفيظ

القرآن، رحب بدعوتي إلى مشاركته في الطريق ودعوته لمشاركتي في العشاء، مشى معي حتى السيارة، دخل عمارة متعددة الطوابق وخرج حاملاً حقيبة وبجواره امرأة، دخلت وجلس بجوار الباب، عرفت أنها شقيقته وأنها تعمل ممرضة في مستشفى خاص في الطائف منذ سنوات عشر.

لم ألاحظ أني أثناء تغيير سرعة السيارة كانت كفي تلامس جسدها، لما دخلنا الطائف ذكرت اسم فندق رخيص، اعترضت ودعوتهما إلى الرقاد في منزلي الذي لم يبق فيه أحد سواي.

أسرع الرجل إلى الحمّام وأرشدتها إلى غرفة الضيوف والمطبخ، اعتدت النوم في الظلام، ألاحق صور أفراد أسرتي، ولدي الوحيد يدرس في الجامعة بالرياض وابنتي الوحيدة مع زوجها في الدمّام، زوجتي طلقتني بعد أن عاد ابن عمتها من غربة تجاوزت السنوات العشر ليأخذها مخلفاً في داخلي بقعة سوداء.

باب الغرفة يفتح، فجّرت سكوني وخدري وغرزت أظفارها في جسدي، تأخرت في النوم صوت مؤذن المسجد المجاور أعادني إلى الحياة، في الثانية عشرة ظهراً قرع الباب، كانت هي دونت عودتها للعمل

وأوصلت شقيقها إلى الإدارة التي تعاقد معها حتى يكمل أوراقه.

في المكتب عرفت أن البرنامج التدريبي لن يحقق هدفه كما جاء في اجتماع رؤساء الإدارات، إذ لم يتم تجديد أجهزة الحاسب، بعد أيام بعت سيارة الونيت، طلب مني كاتب عقود البيع بعد توقيع المبايعة أخذ أغراضي من الونيت. أدخلت كفي تحت المقعد جمعت الأشياء في كيس من البلاستيك، وأخذت سيارة أجرة إلى مكتب عقارات أشارك في إدارته.

وأنا في المنزل أتابع فيلماً أجنبياً في إحدى قنوات التلفزيون تمدد الكيس بجواري أقلب محتوياته، داخل مظروف مغلق عثرت على قصاصات ورق بها خطوط ورموز غريبة ونوتة أرقام هواتف تخص الممرضة.

بعد انتصاف العام الدراسي جاء المعلم يدعوني إلى حفل شاي لمناسبة حصوله على جائزة في مسابقة لتحفيظ القرآن على مستوى المحافظة، وأنا أغادر الحفل أخبرتها بأن لدي أوراقاً تخصها.

وانشغلت بأموري المعتادة، سافرت لزيارة ابني وقمت بإغراء ابنتي وزوجها للانتقال من الدمام إلى الرياض بشراء منزل كي تعتني بأخيها.

أنجزت بيع عمارة من عدة طوابق لرجل متقاعد من عائلة شريكي في المكتب، الممرضة تسكن إحدى شقق الدور الأرضي، استلم المشتري العمارة واحتل مع أسرته الكبيرة الدور الثالث، شريك مكتب العقار خطب ابنة الرجل المطلقة.

وأنا أخرج استمارة السيارة ذات ظهيرة لشرطي سير في نقطة تفتيش لمحت أوراق الممرضة التي تقبع منذ زمن في درج السيارة، أخرجتها وواصلت طريقي لتسليمها إياها، أخذت الأوراق، عرفت أن شقيقها مسافر في رحلة مدرسية، قرع الباب، كانت ابنة صاحب العمارة، رن الهاتف يطلب حضورها لغياب الممرض المناوب، وهي تخرج على صوت منبه سيارة المستشفى لمزتني تدعوني للبقاء، مع القطرة الأخيرة من كأس المشروب كنت أعانق الفتاة ولم أتوقف حتى اقتحمت أعماقها. لملمت ملابسها واختفت.

ألغي عقد المعلم بعد اكتشاف تزوير في إجابات بعض الطلاب، استقبلت ابني وابنتي لقضاء بعض أيام الصيف، شريكي في مكتب العقار تزوج وسافر مع عروسه إلى باريس، أقمت حفل عشاء لولدي وابنتي، عرفت أن أم أولادي عادت بعد وفاة زوجها من الغربة.

قمت بشراء مزرعة صغيرة جاء صاحبها للمكتب يعرضها للبيع، قال مراسل المكتب السوداني إن زوج أخته مزارع في أحد القصور، قرر المزارع العمل معي ونقل كفالته إذا تمكنت من ضم زوجته التي قدمت للحج إلى إقامته.

بعد سفر لتفقد ابنتي التي جاءت ولادتها الرابعة متعسرة، وجدت مكتب العقار مغلقاً، شريكي انتقل عمله إلى جدة وهو يقترح إغلاق المكتب.

في المساء وزوجة المزارع تقدم الغداء، أخبرتني أن زوجها وشقيقها خارج الطائف لزيارة قريب تعرض لحادث إطلاق نار أثناء رعيه أغناماً في البر، دعوتها وابنتها ذات السنوات الأربع للجلوس، أعددت الشاي ورأس الشيشة لا أدري كيف تمكنت من إتقان حشوه بالجراك الذي أحرص على اختياره وخلطه، مددت يدي وسحبتها ثم طبعت قبلة على خدها، تخلصت محتجة واختفت.

سافرت في مهمة عمل لمدة شهرين، فكرت في العودة إلى زوجتي فلم ترحب ابنتي بذلك، الممرضة استقالت من عملها فأقمت لها حفل عشاء وداعياً في المزرعة حضره لفيف من زملائها.

زوجة المزارع تجلس على أحد مقاعد المدخل وعلى

محياها الأسمر بسمة، الأبواب مشرعة الطفلة في أرجوحة تظللها من الشمس شجرة عملاقة، والسكون يعم المكان.

تذكرت الحفل. لا أذكر شيئاً، لمحت خلف باب المدخل شنطة يد نسائية، فتحتها فوجدت قصاصات الأوراق ذات الخطوط والرموز الغريبة وبعض النقود، جاءت فأخذت الأوراق والشنطة. شممت رائحة حريق، كانت الشنطة والأوراق تلتهب فوق شعلة موقد الغاز.

الشريط

اعتادت مشاركتي في مشاهدة (أشرطة الفيديو) التي تتبادلها مع زميلاتها في المدرسة ومن خلال صداقاتها الخاصة، والدتها حذرتها من التمادي في ذلك بينما أختاها اللتان تكبرانها تناقشانها في ردود الفعل عندي.

بعد زواجها ورحيلها بعامين جاء (صوت أختها أمينة) يبحث عن شريط يسجل جزءاً من حفل خاص، يتبارى فيه مجموعة من الفتيان الملثمين في الرقص على أنغام الموسيقى، تكرر اتصالها عن الشريط وادعت أنه يعود إلى زوجها الذي سأل بقلق عنه.

هذا الحرص دفعني للبحث في مكتبتي عن (الشريط) ومشاهدته، لفت نظري إبداع الفتيان الملثمين في الرقص وتركيز المصور على مؤخراتهم التي تهتز مع نقرات الإيقاع.

توقف التصوير وانشغلت بإشعال سيجارة ورشف ما تبقى في براد الشاي ليعود يصور أطفالاً ونساء ويقترب

المصور من الوجوه في حركة استفزازية تواجه بصراخ وشتائم بين ضحك وهزل أسري، أخذت أدقق في الوجوه (هي) غير موجودة بينما أمها وأخواتها وآخرون تتنقل مشاهدهم.

يعتم الشريط ثم تعود الصور باهتة (وصوت خافت يردد بعد..بعد..بعدين) تكشف ظهر امرأة ترفع سروالها، يقترب المصور من عجيزتها وينتهي الشريط، قمت بإعادة المشهد لمعرفة الهمس وتحديد ملامح المرأة.

أخبرت (أمينة) لما اتصلت بعثوري على الشريط ففرحت، سألتها عن الحفل ومناسبته، تحدثت كثيراً عن زوجها، وأبكاها فقدان والدها الذي مات منذ عام ومرض أمها وعدم استقرارها.

تنتظرني بعد الثامنة ليلاً عند الباب الخارجي للمنزل القديم المكون من ثلاثة أدوار، دفعت الباب الموارب، المكان معتم، سمعت حفيفاً في الدّرْج، جاءت ومدت يدها مسلمة وهمست تسأل عن الشريط.

وصلتنا حركة وأصوات من الدور العلوي ووقع خطوات هابطة، انحنت تلتقط شيئاً (كانت حزمة مفاتيح) عالجت بسرعة باب الدور الأرضي ودفعتني للداخل، أشعلت النور، المكان رغم عدم وضوحه متكامل

التجهيزات (كان سكن زوجة والدها المصرية) التي رجعت إلى بلدها بعد اكتمال العدة، جلسنا وبين يديها الشريط ترتدي ثوباً فضفاضاً قصيراً.

قلت: في (الفيلم) لقطة أزعجتني لا أعرف كيف صورت (لم ترد على كلامي)، فواصلت (البزران) رقصهم حلو أحسن من البنات، (أغمضت عينيها)، واحد منهم كأنه بنت.

وقفت، فشد انتباهي (صدرها الصغير وسمنتها) توجهت نحو الباب، الأصوات تتواصل، ألصقت خدها بالباب تستمع إلى الحديث، اقتربت (ملتصقاً بمؤخرتها) أشاركها التصنت.

قالت: (بصوت خافت) أخي وجارنا جاء يخطب أختنا الصغرى.

عدنا إلى الداخل نترقب رحيلهما، وتردد صدى، شيء يقع في المدخل، تقدمت إلى الباب وفتحته بحذر، وأنا أدخل عربتي التي أوقفتها على مبعدة أكتشف أن الشريط معي.

محمد المزعل

لـــم يكـن مـصدري في تـكـويـن صـورة مــرتـبـكـة عـن أسرتها مرتبطاً بتلك اللحظة التي شاهدت خلالها والــدتها الــتي أوصلتها بناء لطلب منها إلى منزل في حي بجنوب المــدينة تــوبخ بألفاظ مقــذعة أخــرى علــى تقصير بدر منها، ولم تقنعها الأعذار المقدمة ولا بكاء طفلة رضيعة أزعجها تعالي الأصوات حولها.

ولــم يكــن مــن خلال شقيقتها التي اقتحمت لحظة فراغ في داخلي في عامنا الأول فضمنا فــراشها ذات صباح بعد تفرق الجميع بين مدارسهم ومراكز أعمالهم وقد أوهمتنــي وأنــا في العمــل بأنها تحمــل رسالة ترغب مني في الحضور لأخذها، بينما تجربني ضمن محاولتها الحذرة لأن تكون أماً.

ولــم يــأتِ من مشــاهدتها في محل تجاري أمرتني بالوقوف على مدخله حتى تشتري فانلة شتوية رخيصة الثمن شاهدتها على إحدى زميلاتها في المدرسة، تتابع

حديث البائع بسكينة وهدوء وهو يحدق بوجهها المكشوف بشغف حتى تحصل على مبتغاها من المتجر بالسعر الذي حددته.

أو ارتباط أخيها الأصغر الطالب في المرحلة المتوسطة بشاب أسود البشرة من الجيران يقضي وقته معه ومن خلاله تجد وأسرتها في الشاب سائق المهمات الخاصة، وتوفر شقيقة الشاب المتزوجة من رجل في حاشية أمير عجوز الحماية من ثورة والدها.

هذه الصور لم تزحزحها من مكانها الثاوي في أعماقي لفنانة داخلها طموح نوراني يحقق السعادة فيمن حوله، ولم تمح لحظات الوجد التي عشناها ما يزيد على سنوات خمس رسمت خيوطها في أول لقاء حتى تسلم صورة رسمتها للمشاركة بها في مسابقة أعلنها النادي الأدبي، حتى كان زواجها وسفرها مع زوجها إلى أمريكا منذ ثلاثة أعوام.

إنما كان بسبب الشاب الأسمر الذي توظف أخيراً في إدارتنا، ولما عرف موقعي داخل الإدارة سعى لأن يكون في المكتب الذي أديره بدعوتي للعشاء مع مجموعة من موظفي مكتبه، استقبلتني شقيقته التي أدهشتني حيويتها ورشاقتها رغم السنين، عرفت أن الأمير الذي يعمل

زوجها عنده تُوفّي وهي بحاجة لعون شقيقها التي تتحقق بوجوده في مكتبي، من تلك اللحظة تداخلت ألوان الصورة.

ذات مساء رن هاتف المنزل وتحدثت لم تكن هي، نبرة الصوت مختلفة ومخارج الحروف التي اعتدتها غائبة وإن جاء الاتصال في الموعد الذي اعتدناه تذكرني بالأسماء السرية التي تحملها ومناسبة الأخير (محمد المزعل) الذي جاء في رسائلها البريدية، تسألني عن حياتي الخاصة وأفراد أسرتي وحالي المعيشي.

بعد ثلاث ليال من المكالمة الهاتفية وفي العاشرة ليلاً اقتحم مجلسنا في المقهى الذي أحتل مع ثلة من الأصدقاء لشرب الشاي وتدخين الشيشة وتبادل الحديث، فتى أبيض اللون جميل الملامح يرتدي ثوباً صوفياً داكناً مكشوف الرأس، سلم على الجميع وناولني مغلّفاً مغلقاً ثم غادرنا بين تساؤل الجميع، لفّقت جواباً رغم حيرتي فأنا لم ألتقِ الفتى من قبل وإن تكن ملامحه مألوفة، قال أحدنا: إنه يسكن في حيهم ووالده رجل أمن متقاعد.

في داخل المغلف رسالة عشق تتذكر فيها لحظات لن تنسى بتوقيع (محمد المزعل) الاسم البريدي الذي

اختارته لمراسلتي في العام الذي رحلت فيه في مهمة عمل خارج المدينة لمدة شهر، وشريط فيديو يحوي أغاني وموسيقى كنا نرددها عبر الهاتف وفي اللقاء الـذي نرتب مـرتبك التصوير وفي أوقات مختلفة، جـاءت المشاهـدة متقطعـة.

تـوقفت المـوسيقى وجاء عويل طفل وصرير باب يفتح ولغط نسائي، الصورة ثابتة وظـلال تتـحرك لتقف أمام مرآة كبيرة عكست صورتها، وأخرى ممتلئة الجسد تساعدها علـى خلـع ثوبها، سروالها الداخلي القصير (شورت) يصـل إلى أعلى الساق أحمر اللون سميك، وحـابسة النهود صغيرة، بحجم الصدر الصغير، ساعدتها المرأة التي لم تتضح ملامحها على ارتـداء فستان حفـل الزواج الأبيض، ودخلت والدتها، مررت كفـها علـى الثوب، وتناقش الجميع حوله، وخلعته لتحمله الخياطة، ثم اختفى الجميع.

هناك مـن تـدندن بأغنية، عادت للوقوف أمام المرآة وهي بملابسها الداخلية تتحسس معالم جسدها النحيل المائل للسمرة الطويل الشامخ بخلاف باقي أسرتها، خاصة أن والدتها بيضاء اللـون تمـيل للشـقرة سمينة

وقصيرة، سمع أزيز الباب وهو يفتح، وصوت أمها يحثها على ارتداء ملابسها.

جاءت الخياطة اقتربت منها تمرر كفها على الظهر العاري وتساعدها على ارتداء ملابسها ثم التصقت بها، عاد أزيز فتح الباب وارتفع صوت أمها منادياً، ليتعالى لغط انتهى بخروج الجميع من نطاق الصورة.

وعاد التصوير العشوائي للأغاني وعرض أزياء خارجي في برنامج تلفزيوني ومشهد إخباري قديم يتضمن تعليقاً على فوز فريق النصر الرياضي بكأس فرق أندية الدوري الممتاز يكمل ما تبقى في الشريط.

تذكرت أنها تزوجت منذ سنوات ثلاث وغادرت البلاد، منذ ذلك الحين ارتبك تواصلي بأسرتها ولم أعد أعرف شيئاً عنها محتفظاً بصورها ورسائلها بين أوراقي في المكتب بعد انتقال الجميع إلى مدينة أخرى (بعد وفاة والدها)، والمنزل المكون من أدوار ثلاثة مغلق تتراكم حوله النفايات.

أرهق التفكير فيها جسدي (بعد مشاهدتها في الشريط) وذات عشاء وأنا في الطريق إلى المقهى توقفت كما هي عادتي أمام مبنى البريد لتفقد صندوق الرسائل، مررت بهاتف العملة المنتصب على جدار المدخل

تستعمله امرأة متدثرة بعباءة سوداء بينما تقف قربها عربة بيضاء اللون يدور محركها، لما تجاوزت المرأة والهاتف، لامس صوتها أذني فاقشعر بدني.

دخلت غرفة صناديق البريد ولما عدت تمهلت، يقف بجوارها رجل أسمر اللون يرتدي ثوباً أبيض وغترة شماغ حمراء عليها عقال سميك، الأطفال المنتظرون في العربة ضاعت ملامحهم بسبب العتمة، توجهت إلى عربتي أدرت المحرك وتحركت، عدت من طريق التفافي إلى بوابة مبنى البريد فلم أجد المرأة ولم أجد العربة البيضاء.

رجل الأمن يتلفع بدثار ثقيل (بالطو) من البرد ينزوي خلف المدخل الزجاجي، تجاوزت المبنى، أمام إشارة السير الضوئية التي يقبع وراءها المقهى عدد من العربات البيضاء المتوقفة لما اقتربت اشتعل الضوء الأخضر.

فقـــر

أين تكمن الحقيقة، وقد سرى العفن في جذوع الأشجار فيبس ورقها وتقصفت أغصانها؟

وأنا أعيد النظر في الأيام السابقة، جاء كتابي فارغاً لا شيء فيه.

تنفست دخان الشيشة فتلوى كما حية ازدردت التراب، تكرر المشهد الذي انتشلني منه نادل المقهى بحديثه عن المطر المنهمر.

صفـــــاء

جاء اسمي من الصفاء مع أن لون بشرتي أسود، في ليلة غفل عنها الزمان لمحته يجلس وحيداً ويسطع بياضاً في فضاء المكان أخــذ يتحلل في جسدي، مع شقشقة الصباح سألتني أختي بفزع عن تغير لون بشرتي.

جـــيرة

عــرفته ونـحـن فـي عـامـنـا الـثـانـي، يـأخـذ أشـيـائـي ويعــترض طريقي وتخرجنا من المرحلة الابتدائية ودرسنا فصلاً واحداً في المرحلة المتوسطة.

وبعــد أربعين عاماً وجدته أمامي، تبسم وهو يحدق بسبحة بين أصابعي اقتنيتها مــنذ أيــام، بهدوء سلمتها له وخرجت من المكان.

أنفاس الرحيل

جاء إتقاني واجبات العمل لمصلحتي؛ مما خلق تواصلاً إيجابياً مع رئيس القسم الذي أعمل فيه، وثقة بالمراجعين أنتجها تعاملي الطبيعي المبني على أداء مهماتي بيسر، وحل ما يعترض واجباتي العملية بشفافية، هذا الأمر ولّد تصوراً سحرياً عني لدى من حولي نمّيته بدون قصد بعد إصرار مراجع يعتبرني ابناً له على دعوتي للعشاء، علم مدير الإدارة بالعشاء فدعاني إلى مكتبه وحذّرني من استغلال عملي في أمور خاصة، لم أفكر كثيراً في النصيحة التي تعاملت معها بهدوء.

ذات ليلة بعد منتصف الليل وفي أثناء مناوبتي العمل دخل مدير الإدارة المكتب مرتبكاً وطلب مني إعداد كشف بالمراجعين، دقق فيه ثم بعد تردد حذر طلب حفظ أوراق أحدهم حتى الصباح وعرضها عليه بسرية ومباشرة وخرج، سرت معه حتى ركب السيارة.

تحول عملي إلى الفترة المسائية في محاولة يائسة

للحصول على شهادة الثانويـة العامة التي وقفت عندها بعـد فشل عامين في اجتياز المرحلة الثـانية، هنا اكتشفت أن في البناء المقابل للمكـتب امرأة تنتظر خروجي وتراقب تحركي أمام المخرج فتسللت ذات يوم وراءها.

أيضاً عرف مدير الإدارة بأني في ليلة سابقة دخلت البناء المقابل، لم أجادله خشية أمر لا أدريه، وفي موعد اختبارات المرحلة الثانية من الدراسة طلبت منحي إجازة من العمل للاستذكار فوافـق رئيس القسم وأبـدى استعداده لمساعدتي، وبما إنني مصمم على النجاح فقد تحقق مطلبي واكتشفت عند عودتي للعمل أن امـرأة البناء المقابل غادرت الحي.

قال بواب البناء المقابل وأنا ألاطفه باحثاً عن سكن لي وقد شعرت أني بحاجة إلى الاستقلال وهجر منـزل شقيقتي الذي ضمني عاماً كاملاً تنفيـذاً لرغبة والـدتي، وعدم مبالاة من والـدي الذي وأد أحلامه في كبديل ليقاوم من خلالي زمناً تآمر عليه، طلب إمهاله وسألته عـن ساكـن الشقة رقم ستة فعرفت أنه قام بشراء منزل في شمال المدينة انتقل إليه.

سألني مدير الإدارة عن سعيي للسكن بعيداً عن أقاربي

ودافعه، شرحت له أمنياتي بمواصلة الدراسة وعملي وبعد منزل أختي إذ انبثق المطلب بعد تجاوزي المرحلة الثانية، ولأنني لا أملك سيارة تقلني، ضحك ونصحني بتعلم القيادة حتى يسلمني إحدى سيارات المكتب ثم دعاني لمشاركته في فرحة عقد قران ابنته البكر في حفل عائلـي. بعد نهاية الحفل أمر سائقه الخاص بإيصالي إلى منزل شقيقتي، وفي الطريق عرفت أن العريس رجل أعمال وأن العروس تخرجت من الجامعة وتعمل معلمة وأن البنت الأخرى سوف تسافر لدراسة الطب حيث يقيم أخوها الذي يدرس منذ عامين بعد فشله في الالتحاق بالجامعة لتدني درجاته.

تعرض المدير العام لوعكة صحية أدخلته المستشفى وهناك قابلت زوجته وابنته، ولما زرته في المنزل كانت الابنة هي من فتح الباب لي، شدّت علـى كفي ضاحكة فلم أهتم بحركتها وإن فكرت وأنا أتناول صحن إبريق الشاي من خادمة سمراء لماذا لم تفتح الخادمة الباب، عرفت أن زوجته تزور أمها المريضة وسوف تعود في ساعة متأخرة من الليل، بسبب مادة اللغة الإنجليزية لم أنجح في الثـانوية العامة، أخبرني المديـر العام أن ابنه الذي يدرس في الخارج لغته جيدة وبإمكانية الاستفادة منه.

صباح يوم عمل طلب المدير إحضار أوراق نسيها في المنزل، فتحت الباب الخادمة، لتطل المرأة التي بهرني جمالها ورشاقتها وقد لفت جسدها بثوب نوم أحمر اللون ودثار من الحرير ربطت وسطها النحيل بحزامه، تحمل ملف الأوراق وأنا أتناوله منها هنأتني بالنجاح وقالت إن ابنها وابنتها اتصلا من لندن كي تبلغني فرحهما بنجاحي.

تخيلت المدير وهو يعاتبني على تأخري بعد أخذه الملف وتقديمه لرجل يجلس قبالته أنه يعرف السبب، تركت الاثنين لأجد في المكتب بواب البناية المقابلة بلغني أن جناحاً صغيراً في المبنى يحقق تطلعي ولن يعترض السكان على تأجيره، خاصة وأن صاحب البناء يحتل الدور الثالث الذي يضم الشقة الصغيرة التي كانت ملحقة بسكنه ثم فصلها بعد زواج آخر بناته وانتقال أبنائه الكبار إلى مدن أخرى للعمل، ولم يبق معه سوى زوجته وابن في المرحلة الدراسية المتوسطة وابنة في المرحلة الابتدائية.

بعد غروب يوم وأنا ألج مدخل مسكني الجديد الذي اعتدت فيه استعمال الدرج، وجدتها تقف أمام

المصعد، المرأة التي وافقت انكساري منذ عامين دخلت معها المصعد، عرفت أنها ابنة صاحب البناء من زوجته الأولى المتوفاة، وأن زوجها رجل أمن في مهمة خارج المدينة.

نمت طويلاً وعلى نداء أذان الظهر شعرت بالحركة حولي، تذكرت أني أخـذت إجازة من عملي لزيارة أسرتي والتعرف على أهل الفتاة التي اختارتها أمي زوجاً لي، ارتديت ملابســي وغادرت المبنى، مضى شهر الإجازة سريعاً ورتبت طلب نقل عملي إلــى مديــنتي القديمة، اعترض الــزملاء وقررت زيارة المدير العام الموقوف عن العمل منذ ستة أشهر، احتفى بي وأخبرني أنه سوف يلحق بابنه وابنته وبارك انتقالي.

جــاءت الموافقة على انتقالي إلى مــدينتي القديمة صباح يوم الأربعاء، وفي الطريق المتجــه غرباً والذي اعتدت سلوكه منذ كنت طفلاً وبعد تجاوز نصفه، توقفت لتزويد السيارة بالبنزين وتناول العشاء في مطعم ومــقهى للمسافرين، كانت العاشرة ليلاً لما واصلت سيري وبعد مسافة لا أدري كم هي انفجر أحد دواليب العربة ولم أستطع التحكم في المقــود فانقلبت بي السيارة وسحق

جسمي بين الهيكل المهشم، انساب دمي على إسفلت الطريق وأخذ نفسي يخفت بينما هناك حراك حولي وناس يستعجلون إخراجي حتى لا تلتهمني النيران، ولم أعد أشعر بشيء وأحدهم يقول بسكينة وهدوء: مات الولد لا إله إلا الله.

أطلال

لفت نظري طوله وصوته الرخيم، أمي تحثني على إنهاء الحوار خوفاً من التأخر.

قال: سوف أوصلكم وطلب من خادمه صرف سيارة الأجرة التي جئنا بها، وأنا أترجل من العربة عرفت أنه اكتشف كذبي وهو يقرأ اسم والدي بمحاذاة باب الدار.

التعب

وأنا أنتظر عودتهم أنساني التعب بدر ابن الثالثة الذي اعتاد النوم في حضني.

قبل حمله إلى غرفته، ركضت أبحث عنه في أرجاء المنزل الكبير ووجدته يرقد في فراشي فتمددت بجواره.

الردف

يجلس على مقعد خشبي تجاوزته وطفلها الذي أركبته لعبة السلالم المزروعة مع ألعاب أخرى في المكان ولما اندمج مع الآخرين، جاءت وجلست بجواره بادرته الحديث سألته عن ابنه أجاب أنه هناك وهو يرمق السماء، أمسكت بكفه مشى بجوارها وعند محاذاته للعبة انفلت الطفل من رفاقه وتعلق به.

شارع المنذر

شارع المنذر فرعي يتجه من الغرب حيث يتكئ على صدر شارع أبي بكر الصديق متجهاً للشرق ليصطدم بسور مقبرة صغيرة أوقف دفن الجثامين فيها منذ ثلاثة عقود، ومن جانبي سور المقبرة الجنوبي والشمالي يلتحم المارون بالشارع بعابري شارع عكاظ.

في جزء من الشارع احتلت بدرية منزلاً من الطين، في جانب من الفناء المترب سلم خشبي يصل إلى السطح المبلط بالإسمنت، كذلك احتلت رقية منزلاً آخر وكذلك خديجة، الأولى زوجة رجل توقفت مهابته عند ضخامة جسمه وكثرة أولاده وبناته مع وهم سرى بين سكان الشارع أنه رجل مباحث، والثانية عقيم وزوج رجل عجوز يجهل الجميع تاريخه ولكنهم يحترمون صمته وحرصه على عدم الاختلاط بهم، والثالثة زوج عسكري في الجيش انتقل عمله منذ سنوات ثلاث من مدينة عسكرية في الشمال ليكون قائداً لمدرسة عسكرية في الطائف فقام بشراء منزل إسمنتي من دورين في زاوية الشارع.

في الصباح يخلو الشارع من الأطفال لانشغالهم بالدراسة، وتقل الحركة فيه إلى حد النضوب ويبقى صوت بائع الأقمشة الجوال وسقاة المنازل، وتلتقي النساء في جلسات تواد وحديث ضحى.

في غفلة من الجميع سكن عامر مع والدته وأخته في منزل مهجور بشارع عبادة الموازي لشارع المنذر. من الشمال يقبع المنزل المتداعي خلف منزل بدرية فأخذت تقص على الأخريات ما تشاهده عندما تقوم بنشر الملابس المغسولة على الحبل الممتد في السطوح حيث تطل من فتحات ساتر السطح على ماحولها.

قالت خديجة إن عامر وأمه من جماعتها وقد سعى زوجها إلى إلحاقه بالمدرسة العسكرية، كفّت بدرية عن الحديث عن مشاهداتها بعد أن تسلق عامر السور ذات صباح فتأخرت في مغادرة السطح، فجاءها الأمر ولم تقاوم رغبته في الحديث عن مشاعره، كان يدقق في كلماته ويلمح أثر ذلك فيها فلما عرف أنه سيطر عليها قام بمضاجعتها وتركها بين ثيابها المبللة تحت حبل الغسيل.

منزل رقية الملاصق لدار بدرية حوافه متقاربة مع الدور الأخرى وكان الرجل العجوز عندما يخرج يقوم بغلق الباب بالمفتاح في نهاية الأسبوع، وبعد مغادرة

العجوز الشارع يترجل أحدهم من سيارة تقف في طرف الشارع يقوم بدفع الباب الموارب والدخول ثم يخرج بعد ساعة من عودة العجوز، قالت رقية إنه أخوها يأتي من المدينة المجاورة ولم يقنع جوابها أحداً، إنما طريقة حياتها الانعزالية دفعت الآخرين للصمت.

تخرج عامر من المدرسة العسكرية وعُيّن في مدينة أخرى، بقيت أمه وأخته تحت رعاية وحدب زوج خديجة الذي شعر أن داخله ينجذب نحو البنت التي بدأ تشكل أنوثتها، عرفت خديجة الأمر من بدرية فخاصمت زوجها وأخذت أطفالها وأقامت عند أخيها في جنوب المدينة، وتعرفت على جارته قائدة فرقة غناء نسائية فأخذت تحضر حفلاتها كمرافقة وتقضي وقتها في زيارتها التي استساغت خلالها تناول جرعات من الخمر.

ذات صباح فجع الشارع بوفاة زوج بدرية المفاجئة قيل إنه مات مسموماً ولما جاءت خديجة مواسية عادت لبيتها وبسبب مرض الرجل العجوز غادرت رقية الشارع لتكون بجواره في منزل شقيقه، وجاء عامر معزياً، صوته يصل سمع بدرية وهو يواسي أهل الميت، ترقبت صعوده إلى السطح ولكنه رحل بأمه وأخته.

زوج خديجة منح رتبة عسكرية ونقل إلى مدينته السابقة

في الشمال، انتقل عامر إلى مكتبه وقام بشراء منزل ليكون مهراً لعروسه الصغيرة وأمها، علمت خديجة بالأمر وهي تعد للحاق به فتوقفت وفضلت البقاء مع أبنائها في منزلها.

فتحت بدرية ذات صباح الباب لتجد بائع القماش المتجول فأدخلته إلى غرفة الجلوس، وتحدثت عن حاجتها لملابس جديدة والانكسار في وجهها، لم تقاوم لمساته وهو يعرض ما لديه، شعرت بالانتشاء وكفه تعري ساقيها، نامت فوق قطع القماش، خديجة تجرعت ما تبقى من خمر في كأسها وسارت خلف صديقتها المغنية، استسلمت للمداعبة الجسدية، تنبهت وهي تتمدد في الفراش إلى وجود رجل يجلس على مقعد في الغرفة، رقية في زيارة مجاملة لنساء الشارع قالت إنها شرت بيتاً في طرف الحارة بنصيبها من تركة زوجها العجوز وتزوجت عامر.

ارتعاش الرمل

قال طائر هزار لفراشة كتان حطت بجواره صباح يوم في شهر شباط غطى الغيم شآبيب الشمس، تشرنقت الحروف وبدأت معالم الطريق تلوح، الغربة تتفجر في داخله من ظلم حاق به فتدمر حلمه مع الكبـوة الأولى في مسار التعلـم فهرع إلى طـريق الوظيفة، نموذجه حلم يمارس معه عندما يدخـل الحمّام العادة السرية، وذات مـساء كان يركب مع سيدة يعرفـها سيارة أجـرة متجهاً إلى مـدينته القديمة، بادلته الحـديث وحدّقت به عبر خمارها، وبين وقـت وآخر كانت كفـها السمراء المتعرقـة تربض على فخذه.

معـرفته بالمرأة كونها من صور المجلات التي يقرأها، ونســاء أفـلام السينما التي تعرضها صالات بدائية غير مرخصة في الطائف، تغلقها الشرطة ويداهمها بـين وقت وآخر أفراد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

في استراحة مسافرين تحف بها أشجار وحشائش

نصفها محترق بسبب زحف كثبان الرمال وتحرك المكان أمن لمرافقته غرفة شاركتها فيها أخرى عائدة إلى زوجها برفقة والدها، جلس مع الرجل في مقهى الاستراحة، أشعل الرجل سيجارته وطلب إبريق شاي وسأل النادل عن نوع الطعام، قام بحمل صحن الطعام إلى غرفة مرافقته العجوز، تناولت المرأة الأخرى الصحن وقبل أن يتركه لها سقط الخمار من على وجهها فبهره جمالها وبياضها، انحنى معها وهو ممسك بحافة الصحن لوضعه على أرض الغرفة.

لما عاد إلى السيارة لمواصلة الطريق جلست المرأة في المقعد الخلفي بينه وبين مرافقته بينما عاد والدها إلى مكانه في مقعد السائق مع الراكب الذي كان يجلس بجواره، تتبادل المرأتان الحديث وهو يرمق الفضاء وينادم البوح الذي عصفت به الرياح، أطرافه النحيلة ترتجف وغثيان الطريق يتكوم في داخلة قوائم من الحبر الأسود، قطعت تأمله كفّ ربّتت فخذه، تلمسها طرية وغضة وتركها تمارس عبثها، إنه بحاجة لخلوة يستمني فيها على صورة امرأة كوّنها خياله والكف تزحف كما الأخطبوط.

لم ينقطع الحديث بين المرأتين، ولم يتوقف الرجل العجوز عن التدخين، ولم ينته الراكب الآخر من قصته التي يسردها للسائق كي يساعده على البقاء متنبهاً لمخاطر الطريق، مع تباشير الصباح ولجت السيارة شوارع الطائف، طلب الرجل العجوز من السائق إيصاله إلى منزل زوج ابنته، وهي تترجل همست في أذنه بأنها تنتظره عند الظهر لما تحركت السيارة.

قالت مرافقته ماذا تريد؟ لم يرد، وطلب من السائق إيصالهما إلى دار أسرته.

نام في غرفة أمه قلقاً، راوده حلم معه تلذذ بلحظة تدفق، تنبّه هلعاً، ركض إلى الحمّام وملابسه الداخلية مبللة، تناول الفطور بين حدب أمه وعلى صوت مرافقته التي تنتظر ابنها المقيم في إحدى الضواحي، مع دقات الساعة الكبيرة المعلقة في صالة الجلوس تذكر الموعد، بدل ثوبه وخرج مخترقاً الطرق التي يعرف، الطيوف تتحرك أمام ناظره، شعر بالتعب والخوف، إنها المرة الأولى التي يركض من أجل لقاء امرأة حقيقية متذكراً لحظات انجذاب عذري مع بنات من الجيران ومعاكسة لطالبات المدرسة المتوسطة وهن يتناثرن من حافلتهن في شارع المنزل.

فتحت الباب بكامل أنوثتها في ثوب نوم طويل يشف عن جسد ممشوق، شعرها ينسدل بدون رباط على جبينها، مدت كفها مسلمة دون أن تنبس بكلمة، حلقه بئر ناشفة، أغلقت الباب بحذر والصمت يعم الدار، دخل خلفها غرفة ستائرها مسدلة، الخوف عمق العتمة التي زادت والباب يغلق بالمفتاح.

بانت معالم فراش تناثرت أغطيته، أمرته بالجلوس وأنفاسها تلفحه وتشعل في داخله النار فأخذ يحدّق بما حوله، صورته وصورتها في المرآة الكبيرة المقابلة للفراش، أخذت غترته وطاقيته ووضعتهما على علاقة الملابس وفكّت أزرار ثوبه، كفها تثير غرائزه والصور التي يحتفظ بها للنساء تمر في ذاكرته، وهي تقبل فمه عرف أنه شاهدها في فيلم سينمائي لم تكتمل أحداثه بسبب مداهمة الشرطة، اكتشفت أنه بكر لا يعرف شيئاً.

ارتفع رنين جرس الباب، وهي تخرج من الغرفة طلبت منه ارتداء ملابسه، وصله صوت الرجل العجوز وآخر سحبته فتذكر غترتة وطاقيته، ساعدته على إغلاق أزرار ثوبه ثم فتحت الباب الخارجي ودفعته، استنشق الهواء عائداً من طريق آخر، وجد أمه وأخواته ينتظرنه، جاء والده من العمل فالتف الجميع حول سفرة الغداء.

نــام في غــرفته السابقة، زارته فــي المنام فأخــذ يهذي، قال أخوه وهو ينبهه من هي؟ فتذكر أنه لا يعرف لها اسماً.

الغرفة الثالثة

الشعور بالألم أخذ يخالط أيامي الجديدة، فضاء المكان لم يعد يتسع لحرقة الأسئلة المسربلة بالتردد وانمحاء المعالم، انتقلت منذ أشهر مع زوجتي وابنتي إلى مسكن جديد، شقة في الدور الأرضي من عمارة يقيم في دورها الثاني صاحبها، وفي الدور الأول شقيق زوجة صاحب الدار وجئت أنا محتلاً مكاناً شاغراً في فضاء شارع يرتبط بتكون اعتدته عابراً قبل زواجي العام الماضي في الطريق إلى الأصدقاء لقضاء وقت غفل عنه الزمان بالحديث عن فائقه التي رحلت وتركت لنا خلق الحكايات.

تعرضت ابنتي لوعكة صحية قبل حضورها مواسية ومغاضبة لزوجها حتى ترتب أمر سفرها إلى حيث تقيم ابنتها، زوجتي وابنتها في منزل والدها وضيفتي تنام في الغرفة الثالثة من الشقة على فراش قطن تمدد فوق الأرض، وأنا أجلس في غرفتي بين النوم والصحو والساعة تشير إلى الخامسة مساء.

باب الشقة يقرع، نبهني من غفوتي إصرار الطارق زوج ضيفتي، تحدث عن رغبته في مصالحتها، أدخلته غرفة الجلوس وسعيت إليها، كانت في نومها العميق تجر أنفاسها، شعرها الذهبي القصير يتناثر مغطياً جبينها وجانباً من وجهها، فتحة ثوبها الواسعة تشفّ عن صدرها الكبير، تهدل ثدياها فانبثقت شهوة ملامستها كما انحسر الثوب عن ساقيها حتى برزت أجزاء من الفخذ وتعالى تقوس ردفها، ناديت باسمها منبهاً فتمطت دون أن تهتم بتغطية عريها، شعرت بأني أحلّق في أجوائها، مانعت لقاء زوجها، زرعت كفي على ظهرها دافعاً وأنا أواصل الحديث عن اعتذاره وشعوره بالذنب وأنفاسها تلفحني، سارت أمامي إلى غرفة الجلوس وهي تدعك عينيها وعدت إلى مكاني.

لم أهتم بالوقت وإذا بها تقتحم خلوتي لتشرح وهي واقفة بالباب اقتناعها بعذره وريبتها من تصرفه، كان أصغر سناً يميل إلى السّمرة بينما هي ناصعة البياض مكتنزة الجسد، هو زوجها الثالث كما قالت اقترنت به منذ عام كانت تطوق علاقاتهما التهم فاعتادت هذيانه ووجدت فيه شيئاً شكلته بما يتفق مع طاقتها.

لحقت بها إلى الغرفة الثالثة فشعرت بي، عرفت أنه

سـوف يأتي في الثامنـة لأخذها، منظر تهدل ثدييها يتكرر أمامي كما شريط سينمائي، غابت كلماتها وأنا أتخيلها عروس بحر أتلذذ بتفحص تلالها، نبهتني كفها التي اصطدمت بكتفي وهي تشرح سبب خصامهما الأخير وانحنت حتى تريني أثر أصابعه على ظهرها، مررت أناملي متلمساً وجعها ورائحتها تمزق تجلدي فغمغمت وأنا ألصق فمي بالشـفة المزمومة وقفنا بعد جلوسنا المتقابل على الأرض ودفنت وجهي في صدرها فتنهدت دقات قلبها تصافح جدران الغرفة، شيء في داخلي يركض ويعبث بصمتي، قاومت عنـف اقتحامي مجاهلها وتوسلت أن أخفّـف من حراكي، كل شيء ينهار ويختفي، أمواج البحر تصطخب وشلالات الماء تطمس المكان، الفراش يطير بنا كما بساط الريح وفضاء الغرفة يتسـع لمعركة أشعلت نيرانها، انهارت الجدران أمام التدفق الثنائي فقالت وهي تلحس جراحها إني الأعنف بين من عرفتهم.

فـي الثامنة خرجت وصوت زوجها المبتهج يتقاطع مع ضحكها العاهر الذي عج في الشارع، وفي العاشرة ليلاً عدت وحيداً بعد أن تلمست رغبة زوجتي في البقاء في دار والدها وخلعت ثوبي ونمت بسـروالي الداخلي وفانلة عـلاقة، سمعت الباب يقرع كان أحد أطفال صاحب

البنايــة قــال إن والدته تبحث عني هممت بإغلاق الباب وجلاً من سطوتها عندما جاء صوتها عبر الدرج خرجت فلما لمحتني غطت وجهها بخمارها الأسود وسألتني عن ضيــفتي، غاب عن ذهني أنه منــذ شهر أقامت عندي ثلاثــة أيام، أنكرت وجــودها فارتفع صوتــها وهــددتني بالطرد من المســكن إذا لم أخرجها فزادت حــدتي في الرد بســبب انفعالي وهبطت فدفعتني ودخلت الشقة تبحث عن المرأة الموبوءة التي أحميها.

لاحقتها وهي تتجول بين الغرف، شمت رائحتــها فتوجهت رأساً إلى الغرفة الثالثة حيث فراش القطن بمخداته ولحافه يتوسط الغرفة التي خــلت من الأثاث، الــغطاء يشف عن وجهها الذي أحدق به رغم أنفي متابعاً كلماتها وخصامها حتى أعرف سبب ثورتها. عند باب الشقة منعتها من الخروج فتراجعت وغمغمت بكلمات غير مفهومة ثم أجهشت بالبكاء. جاءت مقاومتها إصراراً مني على أن أنهي احتجاجاً واهــياً وأنا أجابه تعديها على خصوصياتي، أخبرتها أن ضيفتي إحدى قريبات والدتي وقد عرفت أنها كانت زوجاً سابقة لصاحب الدار، كما عرفت أنها تقاوم حتى لا ينهار بيتها الذي تدافــع عنه منذ دخل زوجها السجن في قضية مالية وسندات بيع سيارات مسروقة تأخر البت فيها وزوج ضيفتي أحد أطرافها.

لملمت نفسها ودخلت المطبخ وأحضرت قنينة ماء فتجرعت الماء من فمها تناولت القنينة وشربت الباقي، فسرت ابتسامة صغيرة على محياها وتركتني في مكاني، سمعت الباب يغلق.

وصلت إلى مقر العمل متأخراً فلاحظ مدير المكتب قلقي وتشتت فكري من خطأ غير اعتيادي في إجراء اتخذته على معاملة مراجع تأخرت أوراقه عندي فأمرني بالعودة إلى المنزل آذناً لي ببقية ساعات الدوام.

قالت زوجتي وهي تمد سفرة الغداء إن الطبيب طلب منها مراجعته لمتابعة حالة ابنتي الصحية، حدقت بها، كانت تقاسيم وجهها تشبه وجه ضيفتي مجللاً بالسواد ولما عادت تحمل دمية تشبه طفلتنا تغيرت تقاسيم الوجه فإذا بها جارتي التي تسكن الدور الثاني وقد تعرت فتخلقت فراشة تبحث عن كوة نور.

أطل وجه أمي وشعر رأسها يتلوى مثل الثعابين وقد استطالت أنيابها وجحظت عيناها وهي تغرز أنيابها في عنقي تمص دمي وصوتها الهادر يتسبب بتحطم الأشياء فتتكوم قطعاً حول جسدي الذي شله الخوف فأتمدد على الأرض مغمىً علي، الصمت يحيط بي والظلام يملأ المكان وأنا أزحف على بطني باحثاً عن مفتاح النور.

المحطة الأخيرة

في اليوم الرابع على موتها تجمع الأبناء والبنات، حول التلفزيون حديثهم متقطع منهم من يتابع أحداث مباراة في كرة القدم بين فريق نادي النصر الرياضي وفريق النادي الأهلي الساعة التاسعة ليلاً والمباراة في الدقيقة العشرين من الشوط الأول والنصر متقدم بهدف سُجّل في الدقيقة الثامنة.

رن جرس الهاتف فتناولت عواطف الابنة البكر للمتوفاة سماعة الهاتف من ابن أختها الذي لم يتجاوز الرابعة، تقبلت المواساة في والدتها من المتحدثة التي لم تُعرّف نفسها، أربكها حرص المتصلة على وجود الجميع/ حنان/ توفيق/ عبد العظيم/ أمينة/ جاء ترتيب الأسماء حسب الأعمار.

بعد صلاة الظهر وقد أخّر توفيق سفره وأجّلت حنان رحلتها مع طفليها بالطائرة أربعاً وعشرين ساعة واستمهلت أمينة زوجها الذي أقام عند شقيقه وتركها مع أطفالها

الثلاثة تشارك إخوتها في مراسم العزاء حتى بعد صلاة الجمعة بينما كانت عواطف تملك وقتها. فهي منذ أن دخلت والدتها المستشفى في إجازة مفتوحة من العمل ومن زوجها وابنتها الوحيدة لتكون بجوار والدتها وهاجس الموت، عبد العظيم يقيم مع المتوفاة منذ عامين بعد أن طلقته زوجته وتخلت عن ابنها فقام بالعناية به، كانت المتحدثة ممرضة في المستشفى الذي تُوفّيت فيه أمهم فعرف الجميع من خلال متابعتهم حال أمهم الصحية.

قالت: تقديراً لوصية المرحومة وأنا محرجة جئت أسلمكم أمانة أودعتني إياها الوالدة طالبة مني تسليمها لبنتها عواطف في حضور الجميع.

بعد خروج الضيفة انتصبت على الطاولة التي تتوسط الغرفة علبة بيضاء صغيرة الحجم يلتف حولها شريط أحمر اللون، ترددت عواطف في فتح العلبة وقام توفيق بفك الرباط، في العلبة أساور ذهبية وخواتم فضية ذات فصوص من الحجر الكريم وصورة فوتوغرافية لرجل يعرفه الجميع ينعتونه بالعم متجاهلين اسمه وقرابته، ورسالة بخط مرتبك يعرفون أن أمهم أمية لا تعرف الكتابة وترهقهم بشرح ما يعرضه التلفزيون من أفلام أجنبية.

تخطفت أيديهم الحلي وبقيت الرسالة بين يدي

عواطف مع الصورة التي تثنت أطرافها، وقد نسي الجميع أمر الرسالة وانشغل كل واحد بالاستعداد للسفر، أول المغادرين توفيق لمواصلة غربته وركبت أمينة عربة زوجها وسط شغب أطفالها واستعجاله، وعواطف رتبت سفرها في رحلة حنان.

في المطار وقد غادرت حنان الطائرة شعرت بالوحدة مستعيدة الأيام الأخيرة لأمها مع صراع المرض ولاح أبوها الذي رحل منذ عشر سنوات في حادث سير أثناء زيارة عمل لقريته في أقصى الجنوب متابعاً أعمال بناء منزل للعائلة في جزء من أرض زراعية تمكن بعد صراع مع أفراد من أسرته وبعض أكابر جماعته من تملكها.

يعلن المذيع الداخلي أن الرحلة سوف تتأخر بسبب سوء الأحوال الجوية، في محطتها الأخيرة ترددت في مغادرة الطائرة عدلت وضع مسند المقعد ونامت فجاءتها أمها في المنام تسألها عن نصيبها من الحلي.

قالت: إخوتي وهم يتخطفون العلبة لم يبقَ شيء.

تنبهت متذكرة العلبة فنهضت وفتحت درج الحقائب الذي يعلو مقعدها وأخرجت العلبة. حدّقت بالصورة إنها تعرف الرجل فهو يسكن في بدروم مبنى مجاور لمنزل الأسرة معتل الصحة، ووالدها يعطف عليه ويتابع حالته

الصحية وتقوم أمها بغسل ملابسه وإشراكه في الطعام حيث ترسل أحدهم بما تيسر.

قالت الممرضة إنها من إملاء المريضة، الرسالة في صفحتين من دفتر مدرسي بقلم مرتبك وحروف تآكلت أطرافها.

أولادي وبناتي

كان أبوكم رحمة الله عليه باراً بي وحريصاً على علاقتي به، في البداية توهمت انه يعزني ولكن الوقت كشف لي أنه حاقد يريد تدمير من حوله وخاصة جماعته وأهله لم اصدق عندما قال أبي إنه زوجني بسعيد الذي يعرف أن شيخ قريتنا خالي حجزني لولده صالح كما تقول أمي، كان صالح طوع أبيه ويده اليمنى حتى فقد عقله عندما (طاح) ذات يوم في بئر من آبار مزرعتنا ولم تنجح محاولات أبيه في علاجه من البكم والصرع الذي ينتابه بسبب الجنية التي دخلته.

بعد ستة أشهر جاء سعيد وتزوجته وتقطعت حبال المودة بين والدي وجماعتنا، ثم سافرت مع زوجي إلى مقر عمله في الشرطة بواباً في المحكمة الشرعية بالطائف وكنت خادمة في منزل رئيس المحكمة، عندما يكون عنده

ضيوف تضحك الحريم من لهجتي فأتحمل (عشان) سعيد الذي خطط لشراء بيت أفضل وأوسع من الذي نستأجره.

تأخر حملي وقلق سعيد ووصلت شكواه للقاضي الذي أعطاه أوراق محو آيات من القرآن وأدعية كتبت بماء الزعفران عسى أحمل وصار النصيب الذي عطلني عن الخدمة في بيت القاضي، وشعرت بأن زوجة القاضي تكرهني وأمها تقول إني (خربانة) فانقطعت عن الناس حتى ولدت وجاءت أمي ومعها الشيخ وولده المريض، دخل صالح المستشفى ولما خرج قام سعيد برعايته وبحجة مواعيد المستشفى استأجر له غرفة في شارعنا وأصبح الشيخ يرسل فلوساً وحباً وفواكه إلى ولده عن طريق سعيد. كان المريض يقضي وقته عندنا في الدار وقد شاركت سعيد في رعايته إذ أغسل ثيابه وأعطيه من طعامنا فعرفت أنه يفرح (ويصحح) إذا أبصرني ولاحظ سعيد ذلك فاستغل الوضع فكان يمنع المريض من (شوفي) فيهيج ويركض في الشوارع فتمسكه الشرطة وتدخله المستشفى، فيأتي والده ويقوم سعيد بإخراجه ويتعهد رعايته ويطلب فلوساً إضافية، فخطط سعيد لمنع إخوانه من نصيبهم في مزرعة الديرة وشهد الشيخ معه.

اشتد المرض على صالح فضعف جسمه، وزاد نحوله

وطال شعر رأسه ولحيته. عندما دخل الحمّام ذات يوم يستحم أغمي عليه فسمعته (يطيح) على الأرض. لم يكن في الدار أحد فدخلت وحملته، تمدد في غرفة الجلوس وفتح عينيه فشعرت أنه يريد قول شيء. قصصت شعر رأسه وشذبت لحيته فأخذ يبكي وهو يقبل يدي. شيء مسَّني وحرارة سرت في عروقي فمسحت دموعه، وقدمت له الطعام فامتنع، لكني بدأت اللقمة فيضحك مثل الصغار ثم يطعمني بدوره وعندما خرج سلم على رأسي.

لاحظ سعيد التغير لكن لم يسأل فقد فتح بقالة ومكتب عقار مستغلاً وقته بالإعداد لبناء دار في مزرعة القرية، عرفت أن صالح يحبني وبطيبة خاطر أصبح رجلي يعرف سري ويشاركني في همي وفي الصباح أفطره (نسولف) ونتابع مسلسلات التلفزيون وأرقد معه في بعض الأيام، وعند الظهر يذهب إلى المسجد ويقوم بفرش سجادة صغيرة قدام باب غرفته يجلس عليها حتى العشاء ثم يدخل وفي الصبح بعد خروج سعيد يدق الباب.

إنه أبوكم الحقيقي الذي معه شعرت بالأمان، وأنا تذكرت ريح أهلي بيت الحجر والذرة والقصب والبقر، نحرث الأرض ونسقي الزرع، والقربة التي أحمل بها الماء ولما مات سعيد زادت رعايتي، حتى جاءت أخته التي لم

يرزقها الله أولاداً قبل عامين فأخذته إلى الديرة بعد موت زوجها، عارضتها في البداية إذ كان صامتاً لم يتفوه بكلمة، فبكى وهمهم ببعض الكلمات لم يصرع ولم يركض في الشوارع كما هي عادته عندما يغضب، وقد أعطاني الحلي والصورة يوم سافر.

تنبهت عواطف لحركة داخل الطائرة، الركاب يعودون والمضيفون والمضيفات يقومون بأعمالهم، تريثت حتى أقلعت الطائرة ثم أخذت تدقق النظر في الصورة، قالت المضيفة وهي تقدم لها كوب ماء طلبته: زوجك..! هزت رأسها بالإيجاب.

أوراق من دفتر سعدا

1

وأنا في الثامنة من العمر تُوفّيت أمي وبعد شهر انتقلنا من مكة المكرمة إلى الطائف أنا وأبي، الذي هده فقدها فشعر بحاجته إلى باقي الأسرة في الطائف.

اقتنى والدي منزلاً من دور واحد في حي الشرقية يفصلنا عن الحي الذي تقيم فيه غالبية جماعتنا شارع عكاظ الذي يضم مطاعم ومتاجر يتوافر فيها كل ما نحتاج إليه.

البيت رغم قدمه كان مسكن أمان لي ولوالدي، تقاسمت الغرف شؤوننا.

أقضي وقتي بزيارة أصدقاء والدي ومرافقته إلى السوق، والصعود إلى سطح المنزل لاكتشاف الحي والجيران.

2

بعد عام تزوج والدي (خديجة) امرأة أرمل لا يوجد لديها أبناء، شملني حبها وفي سفر والدي لمتابعة أعماله، أنام في فراشها.

3

ذات ليلة صائفة شاركت خديجة في الغناء والرقص مع فرقة طرب نسائية تحيي الأفراح، في حفل زفاف قريب لها، وتطورت مشاركاتها حتى غدت عضواً في الفرقة وشجعتني على الغناء والرقص.

4

توطدت علاقتي بزوج أبي وتفتحت مشاعري ومكنوناتي الجسدية على عواطفها.

عرفت من عضو في الفرقة جذبها شكلي، أن لخديجة عشيقاً تلاقيه سراً، لم أهتم فهي تحدب علي وترعى شؤوني كما أمي.

5

أخبرني والدي بأن (مبروك) ابن عم خديجة تقدم طالباً يدي، جاء العريس مكملاً للحظات تكوناً جديداً، فجّر طاقاتي، وغرس في أعماقي ترفاً غريباً.

6

جاء مولودي الأول ولداً أنكر زوجي أبوته واتهمني بأنه ثمرة علاقة بشاب من جيراننا كنت ألجأ إلى والدته لحل مشاكلي ولما تمادى في رفضه طلبت الطلاق؛ زوجة أبي شاركتني أحزاني وأفراحي وكرست وقتي لتنمية قدرتي كمطربة.

7

وافقت على الاقتران (بسعيد) شقيق صاحبتي في الفرقة يشرف على مشاركاتنا، ويقود سيارة الفرقة في تنقلاتها.

8

زوجي وهو يرافقنا تكوّن في داخله الخوف الذي تطور إلى قلق نفسي.

ذات ليلة كنت أحيي مع فتيات الفرقة حفلاً خاصاً فلم يبرح المكان، جلس مع الخدم وعمال المنزل في غرفتهم بفناء الدار، لما انتهت السهرة افتقدته، قام سائق صاحب الدعوة بإيصالنا ومرافقتي إلى المنزل.

9

طال غياب سعيد مما أربك حياتي، عيون من حولي تتهمني، عاودت البحث عنه في المستشفيات وأقسام الشرطة.

قال صحفي يهتم بأخباري وأغني بعضاً من أشعاره، أن زوجي فقد عقله وأنه يهيم على وجهه في باحة الحرم المكي، لم أصدق ذلك، حتى رافقته ذات ليلة كان زوجي يسند ظهره إلى أحد أعمدة الحرم فجلست بجواره، وجهه يشع نوراً ويرتدي ملابس بيضاء، نهض فتابعته بنظري حتى اختفى.

10

في العام الثالث على غياب زوجي جاء طلاقي، حتى أتزوج سراً أحد موظفي المحكمة الشرعية، أخفى والدي

قبل وفاته عنده وثيقة المنزل التي همش عليها بعد زواجي الأول بأني شريت نصف البيت، أثمر الزواج طفلة فأعلن حامد زواجنا.

نظمت وقتي بين نشاطي الفني ورعاية زوجي مع الاحتفاظ بخديجة لدورها في رعايتي كأم عوضتني اليتم ومودة الأقارب وتجاوز نظرة الدونية إلى من يعرفني من الأقارب، ولتنمية الثقة في داخلي بقدراتي وبما أقوم به من حقي الشخصي، وبأن نبوغي جاء بعناية حارس خفي.

11

الصحفي بعد إفلاسه الشعري ونجاحي في غناء قصائد لشاعر جديد ضمّها شريط اكتسح السوق، هاجم نجاح الأغاني وهاجم صوتي وتطرق إلى بعض خصوصياتي.

12

تخرج ابني البكر من الجامعة والتحق بالعمل الحكومي، خديجة طلبت مني إدخالها دار المسنين بعد أن قاطعها أهلها وشعرت بأن دورها انتهى فقاومت رغبتها ولكن أمام إصرارها استسلمت، أقوم بزيارتها بين وقت

وآخر، وأحرص على حضورها مناسباتنا الخاصة وبعض أيام الجمع.

13

في ليلة غناء بصالة داخل فندق مسرة، لمحته يقف مع مرافقه في بهو الفندق، شعرت بأنه يسيطر علي، فتوجهت نحوه ولما حاذيته تحرك فتابعته بنظري حتى مقهى الفندق، لحقت به دخلت وجلست إلى الطاولة القريبة منه، الملامح أعرفها والصوت وحركة الكفين، وثوبه الأبيض الناصع.

بعد شرب فنجان قهوة نهض، فقفزت من مكاني أمسكت بذراعه، وهو يحدق بي ردد بصوت واهن سعدا.. سعدا .

الاختناق

تكونت صورته السياسية من ثقافة زملائه المعلمين في المدرسة، لــم تكن له تطلعات وآراء بقدر فرحه بالعمل والدخل الجديد الذي يأتي آخر الشهر، مازال الــراتب يأتي ومازال وحيداً يتنقل بين المدن، قدم من قرية في أقصى الشمال إلى مكة المكرمة للــدراسة، ولما تخــرج عُيّن معلماً في مدرسة محدثة بالطائف المأنوس.

كان المعلم الوطني الوحيد بين جنسيات عربية مختلفة، توطدت علاقته بالمعلم عبدالرؤوف فلسطيني من غزة جاء وزوجته، ومصريين من القاهرة ومــدن أخرى فكانت تجمعهم نقطة حوار في نهاية الأسبوع للنقاش، استفاد مع الوقت سياسياً وزادت معارفه بما يقرأ من كتب يحضرها المعلمون معهم في عودتهم من إجازة نهاية العام الدراسي.

في عام 1956 حصل العدوان الثلاثي على مصر، يتذكر أن الحوار احتد حول القيام بإضراب والتظاهر،

تناقل معلمو المدارس المصريون في اليوم التالي الفكرة فكان الإضراب معتصمين في المنازل، شارك في الاعتصام وتمت مساءلته وحسم ثلاثة أيام من راتبه.

في جلسات الحوار كان بعضهم يصر على سماع برنامج إذاعي يقدح في أمانة بعض الزعماء العرب ويخوّنهم، ويطالب الجماهير العربية بالاحتشاد لطرد اليهود من فلسطين، بعده يحتد الحوار ويعود كل منهم إلى مسكنه.

ذات مساء أقلقه اتهام تردي الفكر وضحالة التكون السياسي، الذي جاء من معلم مصري جديد انضم للمدرسة، تحدث عن تأميم القناة، وأحضر معه كتاباً يتحدث عن الثورة المصرية وبعض الصحف التي تناولت بعض مقالاتها الخيانات العربية.

أصبح اللقاء ندوة سياسية، لجماعة تباينت أفكارها وأهدافها نهاية الأسبوع وتشارك فيه الزوجات وإن كن فقط ثلاثاً، هو سادس معلمي المدرسة، قرر إعداد عشاء وطني كبسة رز بلحم جمل، احتج بعضهم فكانت الكبسة بلحم غنم، إحداهن بعد العشاء الفاخر توددت له، عرف أنها وجدت فيه شيئاً، فخرج من المدرسة صباحاً، كانت تنتظره.

عرفت زوجة معلم آخر بما حدث وناقشته فلم ينكر، وتوسطت في زواجه من ابنة فرّاش المدرسة العم محمد، كانت فاطمة مصدر إلهام الجميع، وشعلة نبض قريحة الشعر بين طلاب ومعلمي المدرسة.

جاءت فاطمة مع حزمة مطر في الأيام الأخيرة من شهر شباط، يجدها الجميع طفلة تركض في الشارع حتى نصحت نساء الحي أمها بحجبها، وافق العم محمد وتم الزواج واحتفلت المدرسة به، تباينت همومه السياسية وإرثه الاجتماعي، وهواجس خطاب سياسي يحمله ملتقى نهاية الأسبوع.

بين هذه التباينات عرف أن فاطمة تبيح جسدها لرجل من الشرطة العسكرية، أطلق والدها من السجن لتأخره في دفع إيجار المنزل الذي يقيمون فيه، فضربها وغادر الدار مقرراً تطليقها.

مع نهاية العام الدراسي أكمل مسوغات نقل عمله إلى مدينة أخرى، لم يحدد المكان وهو يوقع نماذج طلبات النقل إذ قرر نفي ذاته، في حفل عشاء أخير لمنسوبي المدرسة جاءت فاطمة لكنه شعر أنه فقدها، وطوقه حزن أسود، انفض السامر وتلفت حوله الأشياء بدون معالم، وصوت رعد قادم ولمع برق يمزق السماء،

تجول في الشوارع قادته قدماه إلى منزل العم محمد والبرد يلدغ جسده النحيل، وقوفه لفت نظر رجل العسس الليلي فاقترب منه، ولما عرفه بادله الحديث وسار الاثنان مخترقين الشوارع الخالية.

شده الضوء المنبثق من منزل المعلم عبد الرؤوف، توقف عن المشي، اقترب، فتحت الزوجة الباب، لوّحت بكفها للعاسّ الذي تبسم وهو يهم بمواصلة تجواله، فأطلق صافرته.

الرفقة

ترافقت رحلتي إلى جدة مع هطول الأمطار المصحوبة برياح قوية تكنس الأشياء.

قال: (مرافقي زميل في العمل) لابد من تنظيم الوقت فمدة رحلتنا أربع وعشرون ساعة.

لم أعترض لمعرفتي بدقته وتحكمه في برنامجه اليومي، لما وصلنا بعد المغرب لم نجد أخي؛ فجلسنا على مقاعد مقهى متهالك في وسط حي فقير اعتدت الانزواء فيه عندما أقتحم جدة.

جاء أخي في العاشرة ليلاً وأخذنا إلى مسكنه، ضاقت الشوارع وتعرجت يلطخها الظلام والصمت، بين خطوة وأخرى يتسرب بكاء طفل عبر جدران الصفيح والطوب المتداعي ويقطع حديثنا نباح كلاب ومواء قطط، ولما اقتربنا كان باب المسكن مشرعاً، طلب منا التريث، عرفنا ونحن ندخل أنها جارته جاءت بالعشاء.

قال: (مرافقي وهو ينام في الفراش وقبل أن يرتفع شخيره) إن يومنا مرهق.

حملت فراشي إلى فناء الدار، أخي وجارته يتبادلان الحديث لما شاهدتني تبسمت ودعتني للجلوس، وقرع الباب نهضت فإذا هي جاءت ومعها أخرى أمرتها بتسليتي، بينما كنت في زحام الانعتاق لمحت أخي وجارته يراقباننا عبر نافذة الغرفة التي اندسا فيها، فشعرت بالانكسار.

قالت: (الفتاة همساً وقد لحظت انكماشي) اعتادت ذلك معي..!

قال: (مرافقي وهو يقلب ورقة منزوعة من دفتر مدرسي وقد عدنا) لم أجد الكتب التي طلبتها شقيقتي..!

سحبت الورقة، الكتب متوفرة في مكتبتي الخاصة، لما وصلنا الدار أخرجتها، أخذها وقد لبث لحظات يحدّق بي ثم مشى مبتعداً.

انكسار

* قبل مغيب الشمس طرقت باب سكني الصغير مع ابنتها ذات السنة الواحدة متشحة بعباءتها، دخلت ولما التقطت أنفاسها طلبت مني السماح لها بأن تستخدم الهاتف.

تركتها في الصالة أمام التلفزيون ودخلت غرفة الاستقبال، بعد دقائق ظننتها الدهر، شممت عطرها جلست على المقعد المقابل.

قالت: الشرطة أمسكت بزوجي..!

عرفت أنه تشاجر مع بائع تلفظ بحقه بكلمات نابية في سوق الخضار، وأعرف أنه محدود الذكاء يتصرف بحمق وانفعال، قاسٍ في مزاحه يضحك الأصدقاء من قوته الجسدية فيتجنبون مواجهته.

بكت ثم ارتفع نشيجها واندست الطفلة في حضنها، أخرجت من حقيبة يدها منديلاً ورقياً وأدخلت كفها تحت الحجاب تمسح دموعها.

قامت من مجلسها، انحنت تحمل طفلتها، فانكشف وجهها فتخلت عن الطفلة حتى تصلح الغطاء، قارنت بين ملامح وجهها التي تكونت في لحظة من الزمن ووجه الصغيرة، تعامدت نظراتنا فتخيلتها تبتسم، ذاب جليد المجاملات.

قالت: (وهي تقف بالباب) سوف يأتي أخي في طائرة الصباح..!

رائحتها في ملابسي وفي فضاء المكان، خفت قدوم زوجتي فتكشف ما حدث، غادرت الشقة.

في اليوم الثاني وأنا أتوجه لصلاة المغرب وجدت زوجها فتبادلنا الحديث، حدق بي ونحن ندخل المسجد، اخترت مكاناً بعيداً وتأخرت في الخروج.

الشخير

بيــن تصفيق الحضور ووقوف راعي الحفل ملوحاً بيده، جاء صمتي الذي شاركني ألم الفقد منــذ وعيت الحيــاة، هذه اللحظة بالنسبة لي تاريخية، فأنا ضمن زمرة المدعوين وسوف أتشرف حسب فقرات الحفل بمصافحة الرجل.

في الحــافلة جلــس صمتي بجواري، فقد تهت عن رفاقي وهذه الحافلة الأخيرة في الموكب نصف مقاعدها فارغ، بعد انطلاق الحافلة بدقائق ارتفع شخير نائم، تجاوز تحاور المتناثرين على المقاعد، رمقني بعضهم بنظره فتبادلنا ابتسامة صغيرة.

تسرب الملل إلى أعماقي فقلبت الدليل الإعلامي للحفل وكتاباً عن الثروة الحيوانية أصدرته الشركة لأحد باحثيها، تمطيت وأنا أراقب أعمدة النور والسيارات التي نتجــاوزها في مدخل الرياض، استقرت كفي اليمنى على المقعد المجاور، توقف الشخير.

انثيال بوح

بعد أن قلّبنا ألبوم الصور اخترنا ثلاث صور لثلاث تنبئ الصور عن تميزهن، ثم طالبنا الرجل الأسمر الأصلع صاحب الكرش والبنطال الأسود والجزمة اللامعة ذات الرباط بعرض بضاعته من النساء، كشباب مازلنا عْزّاباً نبحث عن اللذة.

فنحن في برنامج عمل خارج مدينتنا الصغيرة المندسة في ثنايا الجبال، حسب طلب إدارتنا لتطوير قدراتنا العملية يستغرق أياماً خمسة، والاكتشاف يجعلنا نتجول بدون وعي في الشوارع العامرة والأسواق التي تعجّ بالمرتادين من كل الأجناس ثم نجلس في مقهى خارج المدينة الكبيرة التي لا تنام، حتى ساعة متأخرة من الليل.

جاءت خيار الأول فلحق بها، وتأخر خيار الثاني فوجد البديل بيضاء البشرة في حمرة ناعمة الشعر ردفها لا يتوقف عن الاهتزاز، بقيت أرتقب لتدخل طفلة في العاشرة على حظ عظيم من الجمال، شيء شدني إليها وأنا

أتفحص جسدها الممتلىء، تناثر شعرها الأشقر القصير على جبينها، صدرها غض وذراعاها العاريان يلمعان بياضاً، عنقها طويل زرقاء العينين، ثوبها القصير لا يغطي ركبتيها، عرف الرجل من صمتي وهو يكتشف بحدسه أنها خطوتي الأولى الحقيقية وأنها اختياري فغادر الغرفة.

قربت مني وأمسكت بكفي ساحبة جسدي النحيل، قاومتها وأنا أضحك، زمّت شفتيها، نامت كفي على رأسها تتداخل أصابعي مع نعومة الشعر، قربت وجهها حتى لامس فمي شفتيها، تبسمت وأخذت تبادلني التقبيل كمشهد في شريط سينمائي، أجلستها في حضني وأنفاسها تلفحني، قامت وأمسكت كفي فمشيت منقاداً خلفها.

لما دخلنا غرفة أخرى، تخالطت بين الخوف والتصرف الخاطئ أغلقت الباب بالمفتاح، وجلست على طرف الفراش تنتظر أمري، ساعدتها على نزع ثوبها، ثدياها صغيران، انتصبت زاد تناثر شعرها، ولما انحنت تخلع سروالها برز تكور مؤخرتها، طوقتها بذراعي تدافعت حتى تمددت فوق صدري فأخذت أمص شفتيها وشعرها يتناثر على وجهي وكفي تحتضن مؤخرتها.

العرق يبلل جسدي، ألاحق حركتها المتلوية كما حية تنساب بين الرمال وهي تلهث، توقفنا عن الحركة، ساقها

تنام على جسدي، شعرت أنها أقرب أكثر، تقاطع ضحكها وأنا ألعق رقبتها مع قرع خفيف على الباب، شدتني بعنف وقوة قبل أن تنهض، فتحت الباب واختفت.

ونحن في مطعم الفندق الذي نقيم فيه ويستضيف ندوات مؤسسة التدريب تحدث مرافقاي عن تجربتنا، بعد انتهاء جلسة الصباح في اليوم الثالث اتفقنا على معاودة مغامرة اليوم الأول، وفكرنا في إشكالية لقاء الرجل.

توقف قلقنا ونحن نجده يتحرك ضمن فريق العمل الذي ينسق برنامج زيارة منشأة صناعية، أنكر معرفتنا فلحق به أحدنا إلى سيارته وأقنعه برغبتنا في تجربة جديدة تتفق مع نهاية البرنامج وتكون احتفالية للعودة إلى المعتاد.

أصررت بسذاجة وعناد على لقاء فتاة الموعد السابق ورفضت كل الحلول، فجلست وحيداً في صالة الاستقبال في الفندق أمضي الوقت في متابعة الوجوه والإنصات إلى حديث خاطف بين بعض الجلوس ونداء لا يشكل أي معرفة.

في العاشرة ليلاً لمحتها تدخل من باب الفندق طفلتي الشهية، تلفتت حولها ولما شاهدتني سارت غير مبالية بالآخرين، نهضت مرتبكاً والعرق ينضح من مسامي، وجاء الرجل ومرافقاي يتتبعاني بنظرهما وأنا أدخل المصعد.

بعد وقت قصير قُرع الباب كان الاثنان فلما دخلت اختفى الرجل في الممر، حملتها بين ذراعي أقبل وجهها وعنقها، ولما حان موعد الجلسات الصباحية تركتها نائمة.

قال أحد مرافقي إنه نام في فراش امرأة تقيم في غرفة تجاور غرفته، لما عاد في الساعة الحادية عشرة ليلاً وجدها تعالج باب غرفتها فساعدها على فتح الباب، وعرف أن زوجها المريض حصل على أمر حكومي للعلاج فرافقته مستأذنة من عملها وتركت أطفالها عند والدتها، يراجع الطبيب منذ يومين وهو الآن يرقد في المستشفى لإكمال الفحوص.

لما عدت إلى الغرفة بعد الظهر وجدتها تجلس أمام التلفزيون، أخذت أراقبها وهي تستحم، لففتها بالمنشفة وطلبت غداء، في الخامسة غادرتني.

وفي العاشرة ليلاً انتهى البرنامج التدريبي بحفل عشاء، المرافق الثاني تغيب عن جلسة الثامنة ليلاً فتسلمت نيابة عنه وثيقته التي تمنحه التميز بين المشاركين ودرعاً من الشركة الراعية للبرنامج، ومعه تأخرت مغادرتنا للفندق حتى الرابعة صباحاً.

انثال حديثنا في باحة قصر حفلات استأجرته بمناسبة عقد قران ابني، مجموعة من الأصدقاء والأقارب وقد

تناثر الشيب فينا وسكنت الكهولة أجسامنا، عن لحظات دفنها الزمن. العم حمدان مع إتقانه لعب البلوت من أرباب الخيال الجامح صاحب محل لبيع قطع غيار السيارات، زفر متنهدا وقال: حتى يقلق الصمت المخيم علينا متابعة صراع أربعة تقادم بهم الزمن، تنطلق بينهم همهمة احتجاج وضحكة انتصار عند كل جولة من اللعب، الدنيا أمامك سدح مدح وابنه الفتى يطالبه بالمغادرة فالليل انتصف، ضحكنا كان متوقد الذهن نخرت العلل جسده، حكاياته طرائف نتحرج من تلميحاته القاسية التي نثور معها في البداية ثم تتسرب سكينة إلى أعماقنا بسبب صمته وتحديقه المركز إلى وجه المنفعل وبسمة صغيرة ترف على محياه بود، كانت تشاركنا في وجودها لحظات فرح وأيام حزن أسود تجاوز صفات الألم الذي اعتدناه في مدينتنا التي في الصيف تصبح أرصفتها دواوين سمر ومجالس تأمل، وكلما ضمرت الحياة فيها تنبعث فجأة معلنة استمرارها، كما أنها لا تكتمل إلا إذا انبثق فيها مجنون عريق يكون له دور طريف ومؤثر في حياتها وحديث الناس، وشيخ يدعي أنه سيد العارفين وقد انشغل أهلها بعلك الذاكرة.

جاء ابن ابنتي يستحثني على القيام حتى ألج إلى قسم

النساء من قصر الأفراح، لأقف بجوار خالة العريس مع باقي أفراد الأسرة، رفيقا الذاكرة يلعبان البلوت منتظرين هذه اللحظة، نهض أحدهما لاحقاً بي فقد كانت العروس ابنته.

العنقاء

1

صالح.. أكبر الأبناء عرف بصمته وغموضه، والقيّم على مناشط والده الزراعية والتجارية، كما أنه كاتب رئيس المركز الذي اتخذ من القرية النائمة في حضن الصحراء وبين جبال بركانية تطامنت قممها حتى تتفجر ينابيع المياه وتكثر المزارع وأحراش المراعي مملكة خاصة، تزوج صالح ابنة عمه شيخ القبيلة التي تنتسب لها أسرته معيداً العلاقة المنقطعة داخل الأسرة إلى تلاحمها، بينما كانت زوجة والده الأخيرة تنمي حس المواجهة في أولادها من الجيل الثالث في الأسرة لمقاومة سيطرة صالح على مقدرات العائلة.

بينما الجيل الثاني انشغل بتكوين ذاته بعيداً عن سطوة الأسره وقيم الجماعة وبقي صالح ممثل الجيل الأول مكشوفاً أمام مطالب زوجات والده وحاجات إخوانه

وأمهاتهم وقد تم تزويج شقيقته لقريب يقيم خارج القرية، كما أن زوجته لم تحمل رغم مرور عشر سنوات على اقترانه بها لم يترك خلالها عرّافاً أو طبيباً وامتلأ المنزل بالرقى، وعوضت العقم بأن وجهته بمساعدة والدها إلى تولي مهمات هامة خارج الأسرة وعند أهل القرية.

2

حسناء.. بدوية تعلمت من الصحراء حركتها وأخذت من الرمال اللون الذهبي ومن والدتها وأهل خيام الشعر من البدو الرحل بحثاً عن الماء والكلأ، كيف تزرع البهجة فيمن حولها ولما توقفت السماء عن إنزال المطر، اقتربت الخيام من القرية وتوزع الرجال للعمل في المزارع والأسواق فالتحق والدها بالمزرعة الكبيرة التي يملكها والد صالح يشرف على طلمبات المياه ويوصل منتج المزرعة من الحليب والخضار إلى المنزل.

في حفل عشاء نهاية الشهر الذي معه يتم صرف رواتب العمال ومعرفة حاجات المزرعة التقى صالح حسناء؛ كانت تمرّض والدتها، لفت نظره جمالها وطلب نقل المريضة إلى مستوصف القرية وهناك اقترب أكثر منها

بعد قيام الطبيب بتحويل المريضة إلى المستشفى في الدوادمي لمزيد من الفحوص.

وفي غداء خاص بمناسبة شفاء المريضة خطب صالح حسناء مما أغضب زوجته التي هجرت الدار ولم يعترض والده عندما عرف بالأمر، إنما شجعه وقدم له مساعدة جزلة أثناء حفل الزواج عبارة عن سكن مستقل وتنازل له عن دخل محلات تجارية في سوق القرية.

لما حملت حسناء رحل صالح إلى مدينة الدوادمي حتى تكون بجوار المستشفى وترك القرية بما فيها للآخرين؛ ولحقت به زوجته الأولى بعد وفاة والدها وتقاتل إخوتها الذكور على التركة فكان أن قام صالح بطلب المساعدة من والده الذي دعمه مالياً حتى اشترى منزلاً واسعاً وعوّضه عن المحلات التجارية في القرية بمبلغ مجزٍ معه بدأ صالح تجارته الجديدة في مجال الأثاث المنزلي بناء على نصيحة والد حسناء.

3

أنا.. سهج تخلقت في بطن أمي بهدوء وسكينة، لم يغب يوماً صوت أبي عن سمعي حتى وأمي تفحص حملها

في العيادة الخاصة بقسم النساء في مستشفى الدوادمي، وأنا في الثامنة من عمري تُوفّيت والدتي.

عثرت عليها زوجة أبي ميتة في الفراش؛ كنت في المدرسة وكان والدي مسافراً إلى الرياض لعقد صفقة تجارية جديدة، زوجة أبي جاءت وأخذتني من المدرسة، والدي قطع رحلته؛ وعاد ارتبك الطبيب في تحديد الوفاة، وتأخر دفنها. تدخل جدي وبعض أفراد الأسرة فتوقف البحث عن أسباب الوفاة وتم دفن أمي في اليوم العاشر على وفاتها في مقبرة القرية.

تولت زوجة أبي شؤوني فكانت تنام في فراشي إذا سافر والدي. اعتدت أنفاسها والتصاق جسدها بجسدي. تتدخل في اختيار ملابسي وتتابع استذكاري للدروس وتحث والدي على إحضار معلمين لمساعدتي في تعديل درجاتي لبعض الدروس. كانت تسميني "علي " بسبب شعر رأسي القصير وشغبي الغلامي: تقبل والدي الأمر لرغبة في داخله لم تتحقق.

تباعدت زيارتي للقرية وكان جدي وإخوة أبي عند زيارتهم لنا يقيم لهم والدي حفلات عشاء يدعو إليها الجيران والأصدقاء، وحين ينصرف الضيوف يرتفع حوارهم فأعرف أن والدي لم يعد له مكان في الأسرة.

لما حصلت على الثانوية العامة ولرغبتي في مواصلة التعلم قدم والدي أوراقي للجامعة في الرياض وفي جدة، فكان أن قبلتني جامعة جدة في التخصص الذي أرغب فيه بينما كان قبول جامعة الرياض في قسم آخر على ضوء درجاتي في بعض المواد.

أقنعت والدي بجامعة جدة لأن للطلاب المغتربين سكناً آمناً. جاء الفصل الدراسي الأول مرتبكاً، معه كثر تردد والدي إلى جدة، ومعه أغراه أحد تجار الأدوات المنزلية تعرف عليه بالشراكة. وفي حفل عشاء أقامه التاجر في منزله لوالدي للتعرف على بعض رجال الأعمال كان قرار والدي الانتقال إلى جدة.

داخل الجامعة مارست حقوقي كاملة بين الزميلات وهيئة التدريس وفي قاعات وممرات الكلية؛ في السكن بقيت أياماً وحيدة حتى جاءت ميسون، سمراء ممتلئة تتعرى في الغرفة غير مبالية بوجودي؛ تفتح باب الحمّام وأنا أستحم بدعوى أخذ منشفتها أو معجون الأسنان.

انتقل والدي إلى جدة، وفي اليوم الثالث سافرت زوجته إلى القرية حتى تقنع إخوتها بإعطائها بعض النقود من تركة والدها لمساعدة أبي، أحضرنا خادمة وسائقاً يقوم بتوصيلي إلى الجامعة. والدي شعر بالحرية أكثر فأخذ يفكر

في مستقبلي، لم تنقطع زوجة والدي عن نومها في فراشي عندما يسافر والدي ولم تهمل مناداتي باسم "علي" عندما تراني ألبس بيجامة رجالية مخططة داخل المنزل وعند الخروج للسوق تكون أهم مشترياتي بنطلونات جينز وشورتات ألبسها عندما نقرر قضاء بعض الوقت في شاليه على البحر قام والدي وبعض أصدقائه باستئجاره للتنزه.

لما تخرجت من الجامعة جاء العمل معلمة في مدرسة قرية في جنوب جدة تبعد مئة كيلو متر؛ رفض والدي هذا الخيار، وأمام إصراري على العمل تمكن من تبديلها بمدرسة تبعد خمسة وأربعين كيلومتراً في الشمال.

في المدرسة وفي الطريق الصباحي والمسائي اكتشفت أن "علي" ترسب في أعماقي وأنا أجد إحداهن تحتضن كفي خلسة عن مرافقاتنا في السيارة، ولما قمت بزيارتها بسبب غيابها أخذتني إلى غرفتها وهناك ضمتني طربة وهي تقبل عنقي ولما وقفنا حذاء المرآة أخذت تحدق بي ثم زرعت قبلة طويلة على شفتي قطعها طرق الخادمة للباب تدعونا للشاي.

قال أبي ونحن في السيارة عائدين من المستشفى الذي ترقد فيه زوجته، إن شريكه عامر يرغب في الزواج مني؛ كانت المكاشفة متوقعة من أبي ولكن الوقت غير مناسب،

فشريك أبي يغرقني بالهدايا كما أنه يطري جمالي إذا قابلته في مناسباتنا الخاصة فوالدي يعتبره أحد أفراد الأسرة.

وتذكرت عندما كنت في الثانوية أن زميلة تقرب والدي، قالت في الفصل أني لقيطة بعد شجار على أمر يخص الأسرة، لم أناقش أبي حينها وبكيت في غرفتي وأنا أستعيد نظرات طالبات الفصل. تأخرت في تبديل ملابسي وبين دموعي جاءت زوجة والدي؛ ضمتني إلى صدرها ومررت كفها على رأسي فأخذت أشكو لها اتهام قريبتي؛ قبلت جبيني وأغلقت فمي بكفها.

نسيت الأمر وها أنا أتذكر ذلك وأبي يسألني رأيي في طلب شريكه، وعلاقتنا المتوترة بأفراد الأسرة؛ فأبي ترك كل شيء ليتفرغ لي ويتابع نجاحي وهاهو يسعى لتثبيت الأمان في ما تبقى من طريق.

جاء زواجي من شريك أبي فخماً وفي فندق فاخر في لندن جاءت ليلتنا الأولى مرهقة؛ وفي الليلة الثانية فجَّر خبئ مكنوناتي الأنثوية بعد أن دفعني لمشاركته الشراب حتى نشعر بلحظة الأنس أكثر كما قال ونمتع تألق التواصل بفقدان العقل. وخلال تنقلنا لإزجاء الوقت والتنزه اعتدت شرب كأس من مسكر فاخر ينتقيه زوجي بعناية.

عرفت أن زوجة زوجي التي ترقد في المستشفى منذ

عام تُوفّيت ونحن في طريق عودتنا من رحلة شهر العسل؛ ولما وصلنا، كان ابناه الفتيان في منزل خالهما بعد هجرهما منزل والدهما، ومع الوقت اكتشف والدي أن ثروة شريكه مصدرها أموال زوجته المتوفاة وأن هناك قضية في المحكمة تطالب زوجي برد الأشياء التي استولى عليها.

4

السامري.. بعالمه الخاص وسياقاته المعرفية؛ همس في أذني باسمي السري "طيف" بينما كنت أتنقل كفراشة في أحد المتاجر، لأختار المناسب من القماش لتفصيله لحفل نهاية العام الدراسي بالمدرسة التي أعمل فيها. جاء صوته يطري نوع القماش؛ حدقت فيه وأسدلت الخمار على وجهي. تبسّم، كانت بسمته تياراً كهربائياً سرت لذعته في جسدي؛ واتجه معي إلى قسم العطور اختار لي مجموعة من الروائح ثم ترك بطاقة تحمل اسمه ورقم هاتفه واختفى.

انشغلت بمرض والدي؛ ترقد البطاقة في حقيبة يدي وأنا أقف وحيدة أمام غرفة العناية الفائقة التي يرقد فيها والدي؛ زوجي مسافر وزوجة أبي أصابها مرض والدي

فمرضت، وتم ترقيدها في إحدى غرف المستشفى. في المنزل وأمام قلق الخادمتين على والدي برز الرقم أكثر؛ جاء صوته مطمئناً؛ عاتبني على تأخري في الاتصال؛ شكوت له مرض والدي فسكن قلقي.

زوجي أصبح وحيداً بسبب مرض والدي فهجر المتجر وحبس نفسه في غرفة بفناء المنزل؛ يدخن كثيراً ويتجرع مشروبه المسكر الذي لا أدري من أين يوفره؛ يراجع أوراقه وحساباته؛ كنت أجلس معه أقلب الأوراق وألطف ألمي بمشاركته الشراب كما هي عادتي منذ أول ليلة من زواجنا، ثم أدخل غرفتي للحديث بالهاتف مع سامر حتى موعد نومي.

بعد ثلاث سنوات مع القضاء والشرطة ووالدي في المستشفى تدخل أهل الخير بين زوجي وأقارب زوجته السابقة، وجرى حل المشكلة المالية؛ نصحنا الأطباء بنقل والدي إلى المنزل مع تجهيز غرفة طبية، وأعارنا المستشفى ممرضة للمتابعة؛ حضر بعض أخوة أبي للمعاينة وارتفع صوتهم فطردتهم زوجة أبي. وفي تلك الليلة نمت في فراشها وشعرت بأن روحها الطيبة تطوقني.

في مساء يوم وبعد مكاشفة ليلية كنت أجلس مع سامر في مقعد على البحر الممتد أمامنا نلاحق موجه المتكسر

على صخور الشاطئ ونلعق الإيسكريم؛ حديثه الحالم ينزعني من همومي؛ تقاسيم وجهه تزرع الأمان وهو يضم كفي بيده اليمنى، هجرني النوم فخرجت إلى الفناء؛ لم أجد زوجي في الغرفة فجلست أقلّب الأوراق المتناثرة على الأرض: كشف حسابات البنك يفضح التلاعب بالمستندات؛ شعرت بالتعب وعرفت أنه رحل؛ تركت كل شيء وعدت إلى غرفتي.

في منزل والدي المغلق بعد وفاته ورحيل زوجته إلى أهلها حتى يبت القضاء شكوى إخوة أبي لحصر نصيبه في الشركة ليتم توزيع الإرث؛ كان لقاء الحقيقة. مع غياب الشمس أوصلني السائق إلى السوق وجلست على مقعد انتظار في ساحة المحلات التجارية أتأمل تفاصيل المرتادين وأجمع تبعثري، ولما لمحته نهضت، تخللت أصابعه أصابعي، فتح باب السيارة ولما جلست اتجه للباب الآخر؛ فطلبت منه الذهاب إلى منزل والدي.

وقف في وسط غرفة الجلوس يتفحص المقاعد والستائر المسدلة، دخلت غرفتي القديمة تكومت العباءة على الأرض؛ وقفت أمام المرآة وتعريت؛ نثرت شعري وأزلت الماكياج وحمرة شفتي بمنديل ورقي بللته بلعابي؛ أخرجت من خزانة الملابس قميصاً أحمر موشى بزهرات

عباد الشمس الصفراء قصيراً غطى ردفي فكنت أتجدد وأنا أستعيد ذاتي من خلال ذاكرتي.

خرجت من الغرفة امرأة أخرى ففتح فمه مندهشاً؛ وقفت قبالته، نهض من مقعده؛ نزع غترته فتمددت على المقعد مع عقاله، طوقني بذراعيه وقرب شفتيه من فمي؛ اندغم في داخلي؛ اختلط عرقنا مع تفجر رغائبنا المكتنزة منذ بدء الخليقة.

5

أمي من النور (هكذا عرفت) اعتادت التجوال في أرجاء الأرض متمسكة بالتقاليد وطراز المعيشة الحرة التي معها يأنف الغجري من العمل؛ فهي الحسناء التي باعت إخوتها الأربعة للشيطان حتى تفوز بقلب حبيبها فكان موتها الغريب عندما انتقل بها والدي من فضاء القرية الرحب إلى المدينة لتعيش بين جدران الإسمنت مقيدة، عندها فاضت روحها الراقدة لتعود إلى التحليق.

ومن هنا لم أجد أحداً من أقاربها حولي، ولما شعرت بأني سيدة نفسي أتجول كما أشاء بعد انشغال زوجي بمشاكله مع أهل زوجته السابقة وأقارب والدي؛

حضر خال والدتي الخضر الذي أصّل فضاء الحرية في فكري.

كنت مع ثلّة من الصديقات نتناول العشاء في مطعم فندق أوراق النرجس الأربع وخرير الماء ينساب مع صوت الموسيقى متجاوزاً همس المرتادين، جاء يحمل دلّة القهوة صبّ لي فنجاناً وترك مرافقاتي؛ أخذت أتبعه بنظري وهو يتنقل بين الطاولات حتى اختفى.

شيء في داخلي؛ تخلق معه توهمي وهو يغادر المطعم كحصان رافعاً ذيله متوفزاً، تركت الطاولة ولحقت به كان يجلس في صالة الاستقبال؛ نهض لما لمحني أمسك بكفي وسحبني إلى مكان منزو؛ أخرج من ثنايا ثوبه الفضفاض مظروفاً أبيض تركه على الطاولة؛ وتحدث كثيراً عن أمي.

بناءً على طلبه لم أفتح المظروف حتى ندخل دار والدي؛ في السيارة جلس بجواري بالمقعد الخلفي رائحته شذية وثوبه الفضفاض حريري الملمس وعقاله الأسود السميك يلمع كلما مررنا بقرب شعلة نور ووجهه المصبوغ بالحمرة متغضّن بأخاديد الزمان، سبقني إلى الداخل ليشعل الضوء جلسنا متقابلين في غرفة الجلوس؛ روح أمي تحلق في فضاء الغرفة. أخرج المظروف من حقيبة يدي وفك

الرباط؛ كانت في داخله أوراق ثلاث؛ الأولى عقد زواج أمي، والثانية شهادة ميلادي، والثالثة وثيقة تملك منزل في حي فقير باسمي.

عرفت أنه يقيم في المنزل وطلب مني مرافقته حتى أعرف موقعه؛ أما شهادة ميلادي ووثيقة زواج والدي التي تحمل توقيع جدي مستندات تدين أقارب والدي في إخراجهم مشهداً لم يبروا فيه قسمهم في المحكمة يحصر ورثة أبي في أخوته، وأنه مات ولم يخلف، وشهادة ميلادي تحدد موقعي في عشيرة أمي، وأني أصبحت ملكة جماعتنا التي تناثر أفرادها بسبب زواج والدتي من غريب؛ وحتى أضلل الأرواح الشريرة التي تلاحقهم.

اليماني

حتى الآن الأمور طيبة، قلت ذلك وأنا ألاحظ قلق الطبيب المشرف على حالتي الصحية، تعرضت لنوبة قلبية، كنت راكعاً أصلي العشاء متأخراً في المنزل بعد أن عدت من المقهى في العاشرة والنصف ليلاً.

أسدلت جفني، أسترجع خليطاً من الصور، جار مهووس بأسرته يعيد على مسامعنا في كل لقاء يتم لجيران المسجد مقطعاً من تاريخهم المجيد، التفت الجار الذي ألتقيه كل يوم في المسجد، بعد حديثه في المجلس الأسبوعي

ـ أنت يماني؟

ـ نعم يماني من بُريدة.

جدي من العقيلات رفض فتح أبواب السور بدون شروط، وتولى الشيخ الحمد التدريس في الجامع الكبير، كان يرصد أخبار الأسر ولما ولي القضاء كان جدي قد غادر المدينة مخلّفاً زوجاته الثلاث وابنه البكر، الزوجات

الثلاث لجأن إلى أسرهن في الخبوب والابن البكر ترك زوجته ورحل.

تولى الشيخ الحمد أمر المزارع والبيوت التي هاجر أهلها، وزوّج أختي التي لم تتجاوز الثامنة ابن خالته الذيب فاستولى من خلالها على إرث جدي.

والدي الذي رحل إلى الجنوب أقام حياة جديدة، الشيخ الحمد انكشف دوره في تصفية أملاك المعارضين فلم يعد المسجد الكبير مكاناً للدروس العلمية، فاستقال وأقام في مكة.

عرف مكانة والدي فتكلف قضاء جازان في أقصى الجنوب، ما إن باشر العمل حتى تُوفّي والدي تاركاً زوجة وأبناء، تولى الوصاية زوج أمي على أحد خدم والدي، فشجعه على بيع الإرث بدعوى الصرف علينا حتى لم يبق شيء.

فتحت عيني، الممرضة تقوم بجس نبضي، صوت ابني في الممر يناقش حالتي الصحية، قالت الممرضة:

ـ بابا.. أنت كويس

سرت ابتسامة على وجهي، وهمست حتى الآن الأمور طيبة.

صدر للكاتب

قصص قصيرة:

1) البحث عن ابتسامة، نادي الطائف الأدبي، الطائف 1396هـ/ 1976م، الدار السعودية، ط2/ 1985م.

2) حكاية حب ساذجة، نادي الطائف الأدبي، الطائف 1398هـ/ 1978م، الدار السعودية، جدة، ط2/ 1985م.

3) مساء يوم في آذار، شركة تهامة، جدة، 1401هـ/ 1981م.

4) انتظار الرحلة الملغاة، نادي القصة السعودي، الرياض، 1403هـ/ 1983م.

5) الزهور الصفراء، نادي الطائف الأدبي، الطائف، 1404هـ/ 1984م.

6) قالت إنها قادمة، الدار السعودية، جدة، 1407هـ/ 1987م.

7) الغريب، مجلة الثقافة، دمشق، 1408هـ/ 1988م.

8) الانحدار، نادي الطائف الأدبي، الطائف، 1413هـ/ 1993م.

9) الرجل الذي مات وهو ينتظر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1415هـ/ 1994م.

10) الطيب، مكتب الصحافة العربية، القاهرة، 1418هـ/ 1997م.

11) الحملة، نادي جازان الأدبي، جازان، 1423هـ/ 2002م.

12) الغياب، أصوات معاصرة، السنة 26، العدد 145، مايو 2005م.

شعر:

1) معاناة 1397هـ/ 1977م

2) بقايا وجود 1398هـ/ 1978م

3) مقاطع من أوراق عاشق 1407هـ/ 1987م

المحتويات

